مؤمن الهباء

لابد.. من دين الله.. لدنيا الناس ٣

التنوير.. لا التضليل

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

سلسلة

« لابد من دين الله .. لدنيا الناس »

تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

● صدر من هذه السلسلة :

١ - الحداثة سرطان العصر .. أو ظاهرة الغموض فى الشعر العربى

للدكتور عبد العظيم المطعنى

٢ - أدعياء التجديد .. مبددون لامجددون .. للدكتور على العمارى

٣ - التنوير لا التضليل للأستاذ مؤمن الهباء

* * *

وسيصدر إن شاء الله

٤ - منهاج الإسلام .. فى حياة الفرد والمجتمع للأستاذ عبد السميع المصرى

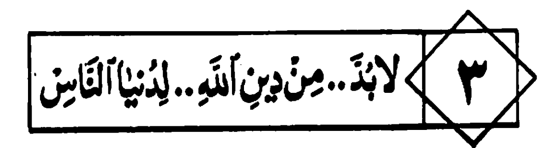
٥ - لماذا لابد من دين **الله** .. لدنيا الناس ؟ للدكتور عبد العظيم المطعنى

٦ - فوائد البنوك ، والاستثمار ، والتوفير .. فى ضوء الشريعة الإسلامية

للدكتور رمضان حافظ السيوطى

* * *

مؤمن الهبَّاء



التَّنوِيرُ .. لا التَّضليلُ

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى أُمِّى وأبى . .
رَبِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً .

المؤلف

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا هو الكتاب الثالث من سلسلة « لابد من دين الله لدنيا الناس » التى تصدرها « **مكتبة وهبة** » لمتابعة - ما يقال عن الإسلام - وهى دار نشر عريقة معروفة فى العالمين العربى والإسلامى ، بالنزاهة والموضوعية والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتبنِّى الفكر المعتدل الأصيل ، وتقديم المعرفة الحقة، البعيدة عن الإثارة الرخيصة . .

ومطبوعاتها خير شاهد على ما نقول ، حيث تعمل فى دأب وصمت لإخراج الكتاب الجيد النافع ، مهما تكلَّف من عناء ومال ، مع الاعتدال الشديد فى تقدير أثمان مطبوعاتها . .

أما كاتب هذه الرسالة - الأستاذ مؤمن الهبَّاء - فليس غريباً عن القراء ، فما أكثر ما كتب من مقالات وأعمدة صحفية فى الصحف القومية وغيرها ، وهو من شباب الصحافة المعاصرة الذى يتخذ خطا فكريا مستقيماً ، ويحاور ويجادل بوعى وبصيرة ، ناضج الفكر ، عفيف اللسان ، لبق الحديث ، صادق التصور ، جميل التصوير ، موضوعياً نزيهاً فى ما يكتب ، غيوراً على دينه ، حريصاً على مصالح الوطن العليا ، شجاعا فى مواجهته للفكر المنحرف المضاد ، قوىّ الحُجَّة ، سلس الأسلوب . يكره النفاق والمنافقين .

وحين تولَّى رياسة تحرير جريدة «النور الإسلامية » قفز بها قفزات هائلة إلى الأمام ، واحتلت مكانة مرموقة بين الصحافة الإسلامية الحديثة ، وتصدَّت «النور » فى عهده لكثير من القضايا القومية والعالمية ، وقدَّمت للقرَّاء مادة صحفية

دسمة بكل المقاييس ، وكنا خارج مصر لا نعثر على أعدادها إلا بـ « الحجز » المقدَّم لدى باعة الصحف . وقد كتبتُ قبلاً فى « النور » نفسها عن هذه المكانة التى احتلَّتها « النور » فى فترة رياسته لتحريرها .

وها هو ذا اليوم يُقدِّم للقرَّاء كتابه : « التنوير لا التضليل » ؛ يواجه فيه بعض الأفكار المغلوطة ، والكتابات « العميلة » التى تتسم فى جملتها وتفاصيلها بالكُرْهِ لما أنزل الله ، أياً كان كاتبوها : علمانيين أو شيوعيين أو حداثيين . نعوت مختلفة لمعنى واحد ، يشنون على الإسلام والعروبة وتراثهما وقيمهما حرباً ضروساً ، مستغلين المناخ المتاح لهم فى الصحافة وفى وسائل الإعلام ، ويتجاهلون النصوص القواطع من الكتاب والسُّنَّة ، ويذهبون مذهب النقيض منها . وعلى سبيل المثال فقد قرأت مقالاً لأحدهم ساعة كتبت هذا التقديم (مقالاً مسهباً فى جريدة قومية واسعة الانتشار - الأهرام ٢/٧/١٩٩٤ - يقول فيه صاحبه إن الحجاب - حجاب المرأة - دخيل على الإسلام ، فرضته جماعات الاسلام السياسى على المرأة المصرية فجَمدوا عقلها ؟!

وهذا الذى ورَّط فيه الكاتب نفسه كذب صريح . . فقد ورد الحجاب فى الآية (٣١) من سورة « النور » :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

كما ورد الأمر بالحجاب فى سورة « الأحزاب » فى مواضع منها قوله تعالى فى الآية (٥٩) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. ﴾ .

فكيف ساغ لهذا الكاتب أن يقول إن حجاب المرأة وسترها محاسنها - ما عدا الوجه والكفين - دخيل على الإسلام ؟!

لمثل هذه الأفكار المغلوطة ، والكتابات المنحرفة تصدَّى الأستاذ مؤمن الهبَّاء . ففضح زيفهم ، وكشف باطلهم ، ورد سهامهم فى نحورهم . وإنك لتحس بصدقه وغيرته على دينه ومصالح وطنه العليا ،وقيم المجتمع النبيلة فى كل سطر من كتابه ، بل وفى كل جملة منه .

بارك الله فيه وأكثر من أمثاله ، وشكر الله لناشر هذا الكتاب ومؤلفه جميل صنعهما ، وزادنا وإياهما تثبيتاً على صراطه المستقيم .

المحرَّم سنة ١٤١٥ هـ (يولية ١٩٩٤ م) .

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

حين ثارت الدنيا كلها ضد الشيوعية .. وقامت شعوب الأرض تُحطم رموزها ، وتُسقط شعاراتها وأفكارها ، كان من المنطقى أن تواجه الشيوعية فى أرضنا العربية المصير نفسه ، لكن ها هى الأيام تُثبت أن هذا لم يحدث ، إذ سرعان ما أجرى الشيوعيون عندنا عملية « تعديل مسار » لأنفسهم ، انقلبوا بموجبها إلى عَلمانيين وطنيين ديمقراطيين بين عَشية وضُحاها .

ثم جاءت موجة العنف المرتبط بالجماعات الدينية لتضمن لأعضاء التنظيمات الشيوعية القديمة العودة إلى منابر السيطرة الفكرية والثقافية والإعلامية ، فقد ركبوا موجة العنف هذه ، وحققوا من ورائها أقصى استفادة ممكنة ، وبسببها صار لهم النفوذ الأكبر فى صياغة الخطاب السياسى ، وفى تحديد المفاهيم ، واختيار المصطلحات ، وصب الأفكار فى قوالب من الشعارات التى أتقنوها ؛ فهم المستنيرون حين يتحدثون فى الدين ، وهم الوطنيون حين يتحدثون فى السياسة ، وهم المسالمون الأبرياء الأطهار حين يكتبون عن العنف والإرهاب ، وهم الديمقراطيون والليبراليون وأنصار التعددية ودعاة السلام ... إلخ .

وبمقتضى عملية « تعديل المسار » أدرك الشيوعيون القدامى جيداً أن لافتاتهم التقليدية عن الصراع الطبقى وحقوق العمال والمد الثورى والمكاسب الاشتراكية لن تضمن لهم مكاناً فى النظام « الديمقراطى » الجديد .. فأسقطوها تماماً ، ومحوا مفرداتها من قاموسهم ، وحصروا نشاطهم فى قضية « الدين » تحت شعار مكافحة الإرهاب ، وراحوا يستعرضون فيها مواهبهم ومهاراتهم .. وبالفعل كانت هذه هى القضية التى أعطتهم جواز المرور إلى

مناطق النفوذ السياسى والإعلامى ، وأصبحت هى المبرر الأهم لبقائهم على السطح بدعوى أنهم « مستنيرون » يواجهون « الإظلام الدينى » . . وبحُجَّة هذه المواجهة ملأوا الدنيا ضجيجاً ونعيقاً ، وأثقلوا الدين بأوزارهم ، وأشبعوه تشويشاً وتشويهاً وتجريحاً .

المشكلة . . أن هؤلاء المستنيرين نسوا أن عملية « تعديل المسار » كان يلزمها بالضرورة عملية « إعادة تأهيل » إذا أرادوا - حقاً - أن يكون لهم إسهام موضوعى فى قضية « الدين » . . ذلك لأن التجارب كشفت بسرعة مكامن الخلل فى تناولهم لهذه القضية الحساسة . . فمعظمهم - للأسف - يحفظ من مآثر ماركس ولينين وجارسيا ماركيز وطه حسين وعلى عبد الرازق وقاسم أمين أكثر مما يحفظ من القرآن والسُّنَّة ، ويعرف عن هيجل وانجلز ونيتشه أضعاف ما يعرف عن محمد ﷺ وصحابته ، ولعله قرأ عن صراع السُلْطة والكنيسة فى أوروبا أضعاف ما قرأ عن الخلافة الراشدة ، وما أرسته من قواعد للحكم يقف العالَم أمامها مبهوراً حتى اليوم .

الأهم من هذا . . أن البعض منهم تدربت عقليته - بحكم التعود والميل الشخصى - إلى حسن الظن بكل ما يأتى من الشرق والغرب على حد سواء ، واستدعاء أنصع صفحاته فى كل مناسبة ، وإساءة الظن بكل ما يأتى من تراثنا الإسلامى ، واستدعاء أشد صفحاته سواداً . . تلك الصفحات التى كُتِبت فى عهود الاضمحلال والتخلف والعزلة والكبت ، ولا تمثل أبداً روافد معتمدة فى الفكر الإسلامى الصحيح .

وبسبب تغافل المستنيرين عن عملية « إعادة التأهيل » . . وبسبب سوء الظن أيضاً . . تأتى كتاباتهم وأحاديثهم عن الدين - أقصد عن الإسلام لأنهم لا يكتبون ولا يتحدثون إلا عن الإسلام - تحمل انحرافات غريبة وخطيرة . . تُصوِّر لنا الإسلام ديناً غير الدين الذى نؤمن به ، وتُصوِّر بيئتنا الإسلامية غير البيئة التى نعيشها ، وتُقدِّم لنا معارك دينية لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، وتاريخاً

دينياً لا يخصنا ، وليس بيننا وبينه أدنى صلة .. ونكتشف فى النهاية أنه يريدون تحميلنا كل الأوزار « الدينية » التى عرفوها وقرأوا عنها فى تاريخ الغرب ، وكأنما قد كُتب علينا - نحن المسلمين - أن نقف فى قفص الاتهام أمام عقول تربت على ثقافة الغرب لتحاكمنا بجريمة غربية لم نرتكبها .

أليس مدهشاً أن نقرأ لكاتب من فئة المستنيرين يحتل مكانة بارزة فى صحيفة كبرى قوله : « إن الدين يصادم العقل ويلغيه .. فالعقل حُجَّة وبرهان ، والدين تماثيل وأساطير ورموز حيوانات وطيور .. » ! ! .. ويتركنا الكاتب الهمام بعد هذا الحكم التعسفى نتساءل فى حيرة : تُرى .. عن أى دين يتحدث ؟ !

وكاتب آخر يروج لنا العَلمانية ويدَّعى كذباً أن صلاح الدين الأيوبى كان عَلمانياً .. وكاتب ثالث يتهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلىّ بأنهم كانوا حريصين على نزع صفات البشرية عن محمد ﷺ وإلباسه صفات إلٰهية بدافع العصبية الجاهلية لقريش .. ويدَّعى زوراً وبهتاناً أن « النص القرآنى يتشابه فى تركيبته مع النص الشعرى كما هو واضح فى المعلقات الجاهلية » .

وليس بعيداً عن هذا وذاك معارضة أدعياء التنوير للشريعة الإسلامية، وللحجاب ، وللبرامج الدينية ، وحديثهم الدائم عن سطوة رجال الدين ، ومحاكم التفتيش ، والدولة الثيوقراطية ، وصكوك الغفران ، والحكم اللاهوتى ، وأصحاب الحق الإلٰهى ، وكلها افتراءات واصطلاحات وتعبيرات ظهرت فى أوروبا ، ولكنهم يحاولون - الآن - إلصاقها بالإسلام والمسلمين.

لقد دخلت العُصبة التنويرية إلى دائرة « الدين » بحجة المساعدة على فك الاشتباك الذى أحدثته أعمال العنف .. فإذا بها تعمد إلى فرض هيمنتها الإرهابية على مناخنا الفكرى لتطهيره من طابعه الإسلامى ، وطمس ملامح الشخصية الأصيلة لأُمتنا .. وكان الأجدر بأفراد هذه العُصبة قبل أن يخوضوا فى قضايا الإسلام أن يخضعوا لعملية « تنوير » إسلامية حقيقية ، يعرفون بها الفارق الكبير بين مفهوم « الدين » هنا .. ومفهوم « الدين » هناك .

* *

ومما يؤسف له أن التنوير الذى تلح عليه الأقلام الشيوعية والعَلمانية ارتبط بالهجوم على كل ما هو إسلامى ، والترويج للإلحاد ، وتشجيع التقاليد الغربية . . كما ارتبط بإنكار الشريعة ، ومحاربة الحجاب ، والسخرية من أى حديث عن الحلال والحرام ، واعتباره دعوة « ظلامية » تشدنا إلى التخلف ، والتحريض ضد المواد الدينية فى كتب الدراسة وفى أجهزة الإعلام الرسمية ، بدعوى أنها تحمل « خطاباً أصولياً » يساعد على التطرف والظلام .

إلى هذا الحد وصل بهم التبجح والغرور ، والقدرة على قلب الحقائق وتسمية الأشياء بغير مسمياتها . . وأشهد بأنهم استطاعوا تحويل كلمة « التنوير » إلى كليشيه جاهز (Sterio Tipe) يلوكونه بألسنتهم وأقلامهم فى كل مناسبة، ليرهبوا به أية محاولة للاقتراب من الدين ، وكأننا لا نستطيع أن نعيش حياة كلها تنوير مع التمسك بالدين ، أو كأن التنوير يقتضى بالضرورة أن نتخلى عن الدين .

والمثير للدهشة - حقاً - أن عُصبة التنوير العَلمانى قد وجدت فى مناخ الفتنة فرصتها الذهبية لإحياء دعوات « قاسم أمين » و« سلامة موسى » وأمثالهما من أصحاب الفكر المنحرف ، متصورةً أنها تستطيع بهؤلاء أن تواجه الإرهاب ، وهى لا تدرى - أو ربما تدرى - أنها بذلك تؤجج الصراع ، وتزيد النار اشتعالاً ، ذلك لأن بضاعتهم مريبة ، ومرفوضة شعبياً ، فضلاً عن أنها مرفوضة دينياً .

إن التنوير الذى نريده وننتظره هو الذى يأتى من ديننا ، من عقيدتنا ، من تراثنا ، من بنائنا الروحى والاجتماعى والثقافى ، لينهض بأُمتنا مرة أخرى ، وينفض عنها ما علق بها من انهزامية وجمود . . ولا شك أن هذا المفهوم الإسلامى للتنوير يختلف تماماً - بل يتناقض - مع المفهوم العَلمانى المغلوط والمتعسف .

المفهوم الإسلامى يقوم على النظرية الأزلية التى وضعها الله عَزَّ وجَلَّ فى

كتابه العزيز حيث يقول : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

هذا هو الأساس الصحيح لعملية التنوير . . ولاية الله سبحانه وتعالى . . التى تعنى التزام أوامره واجتناب نواهيه ، ونبذ الطاغوت نظرياً وعملياً . . فإذا كنا نؤمن أن الإسلام جاء ليقضى على الشرك ويرفع راية التوحيد بنظام عقائدى جديد . . فإننا نؤمن أيضاً أن الإسلام جاء ليهدم نظاماً اجتماعياً متخلفاً كان قائماً فى الجاهلية ويبنى بدلاً منه نظاماً متحضراً عادلاً . . استطاع أن يقدم نفسه للعالَم على أنه النموذج الأمثل لعملية التطور والتحضر فأثبت جدارته ، وغزا به المسلمون مشارق الأرض ومغاربها ، واستطاعوا به أن ينيروا العقول ، ويدرأوا الجهل عن البَشرية جمعاء .

هكذا كان التنوير رسالة الإسلام . . أخرج به الله سبحانه وتعالى المؤمنين من ظلمات الاستبداد والاستعباد والخوف إلى نور الحرية والعلم والعدل . . وما ينقصنا اليوم هو التأكيد على هذه الحقيقة والعودة إلى الوعى بذاتنا . . وليس ينقصنا المزيد من التغريب والشتات .

ما ينقصنا هو العمل بجد لاكتشاف إسلامنا من جديد . . لنعرف - كما عرف الأوَّلون - أنه ليس مجرد شعائر وعبادات بل هو حركة شاملة لبناء المجتمع وتطويره . . بمعنى آخر : ما ينقصنا هو أن نعود إلى « نور » الله امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

لا يكفى أن نقول إننا مسلمون بألسنتنا . . ثم نجعل من الإسلام رئيساً شرفياً لحياتنا ، أو أن نحبسه فى المساجد والبيوت . . ونلتمس الهدى والنهضة

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) التغابن : ٨

والرقى فى غيره ، لا بد للإسلام أن يقود ، ولشريعته الغرَّاء أن تسود ، والإسلام يمتلك بالفعل مُقوِّمات القيادة والزعامة أفضل من كل الأيديولوچيات والأفكار المستورَدة من الخارج .. لا بد للإسلام أن يعود من منفاه ليكون هو مصباح « التنوير » فيحقق التنمية الشاملة التى تنتظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية والصناعية والعلمية والثقافية .. ويقيناً لن تتم هذه التنمية على أكمل وجه إلا إذا كان الإسلام هو مُحرِّكها .

نحن نقول دائماً إن الإنسان هو هدف التنمية وهو وسيلتها ، وتنمية الإنسان تقوم على تصحيح فكره وإثراء عقله ، وإيقاظ ضميره ، وصقل وجدانه ، وتقويم أخلاقه ، وتصويب سلوكه ، وهذا بالضبط هو دور التنوير الإسلامى.

إن كثيراً مما نشكو منه من سلبيات ، وما يهددنا من مخاطر ، ويحاصرنا من مشكلات ، قد جاء نتيجة لانعدام الرؤية الدينية الصحيحة ، وإذا اعتمدنا منهج التنوير الإسلامى فسوف نكتشف أن الإسلام جاء ليحل مثل هذه المشاكل ، ويعالج تلك السلبيات ، بمنهج متكامل .. جاء ليحارب زيادة الإنفاق والتبذير ، وكثرة الاستهلاك ، وإهدار الوقت بلا عمل مفيد ، وعدم شيوع روح الاقتصاد ، والاعتداء على المال العام ، ونقص الإنتاج ، وعدم تجويده وإتقانه ، والإهمال والغش ، واستحلال الأخذ بدون عطاء .. أليس هذا منهجاً صالحاً للتنوير .. أم لا بد من نشر الإلحاد وإشاعة الفسق بين الناس ، وتحليل ما حرَّم الله ، حتى يكون التنوير تنويراً ؟!!

يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) . ويقول أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (٢) .

---

(١) الصف : ٨ (٢) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦

نعم .. هو ذاك .. السراج المنير الذى يبدد ظلامنا .. ويحفظ علينا نعمة الأمن .. ويشيع الحب بين الناس ، ويوقظ فيهم الوازع الدينى الذى هو أهم من القوانين الصارمة والسلطات الحاكمة .. هذا الوازع يُربِّى الضمائر الحية التى تراقب الله عَزَّ وَجلَّ ، وتخشى ممن يعلم السر وأخفى .

المهندسين : ذو القعدة ١٤١٤هـ (إبريل ١٩٩٤م)

مؤمن الهبَّاء

❊ ❊ ❊

رحلة التغريب .. والعودة

فى البدء .. كانت عملية التغريب هى أساس مشروع النهضة المزعوم .. وها هو ذا مشروع النهضة قد انتهى إلى لا شىء .. بينما استمرت عملية التغريب .. وصارت هى كل شىء .. هى الوسيلة والغاية فى ذات الوقت.

باسم التنوير أبعدونا عن إسلامنا .. عن جذورنا .. أفسدوا عقولنا .. أوهمونا أننا لن نصنع الصاروخ .. ولن نركب الفضاء .. إلا إذا خلعنا أنفسنا من رِبقة الدين .. ثم حين أطعناهم .. اكتشفنا أننا لم نخسر إلا أنفسنا التى تحللت من الدين .. لكننا لم نصنع الصاروخ ولم نركب الفضاء .. واكتشفنا - فيما بعد - أننا لن نصنع صاروخاً ولن نركب الفضاء إلا إذا عدنا إلى الإسلام .

باسم التنوير .. أوهمونا أن الدين دروشة فارغة ، وأن الشريعة قيد على حرية الإنسان فى زمن الديسكو والمينى چيب .. سرقوا منا قيمنا وأعطونا بدلاً منها قيماً اشتراكية سوڤييتية حيناً ، وقيماً براجماتية أمريكية حيناً آخر .

وباسم التنوير يرهبوننا اليوم من أى حديث عن العودة إلى الإسلام .. ويخوفوننا من أى مظهر - ولو كان سطحياً هامشياً - يشير مجرد إشارة إلى عقيدتنا السمحة .

الحجاب صار - فى عُرفهم - رمزاً سياسياً لاختراق القوى الظلامية مؤسسات الدولة !! .. وصوت الأذان صار عورة يجب ألا يظهر فى الميكرفونات لأنه مؤشر على سيطرة المتطرفين على المساجد !! .. وكتاب الدين صوَّروه سلاحاً وحشياً فى أيدى التلاميذ يغذيهم بفكر الإرهاب

والقتل !! .. حتى البرامج الدينية فى الإذاعة والتليفزيون صارت ينابيع للتطرف ينبغى تجفيفها بسرعة حسب تعبير المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود .

الغريب أن أدعياء التنوير يُكرِّسون جهودهم الآن فى البحث لنا عن فلسفة .. وعن هَوِية .. بعد أن ماتت الشيوعية والاشتراكية فى مسقط رأسها .. وأصبحت ظهورهم مكشوفة ، ولم تعد لهم فلسفة ولا أيديولوچية يستطيعون بها سد الفراغ الذى حسبوا أنه امتلأ لفترة طويلة بالفكر الشيوعى .

ومشكلة أدعياء التنوير أنهم - للأسف - فى الوقت الذى يدعون الناس فيه إلى التقدمية والديمقراطية لا نرى منهم إلا إحساساً فارغاً بالتعصب والنرجسية ورؤية الأمور بنظرة أحادية .. وهذه ليست مناقب مَن يدَّعى التقدمية .

حين بدأ الإعصار يجتاح أوروبا الشيوعية ويُسقط قلاعها واحدة تلو الأخرى .. قال الشيوعيون عندنا : لا تظنوا أن هذه نهاية الشيوعية بل هى القدرة الذاتية على التطور الذى تتميز به النظرية الشيوعية وما يحدث فى تلك البلاد ليس إلا مرحلة لتطوير الشيوعية إلى الصورة المثلى التى ننتظرها . وحين اعلنت شعوب بولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبعض الجمهوريات السوڤييتية إنهاء دور الشيوعية صراحة اتجه إلينا إخواننا من الشيوعيين العرب ليقولوا : فلنبحث لأنفسنا عن فلسفة عربية خاصة ومتميزة .

وبالطبع .. غاب عن أذهانهم أنَّ أُمتنا العربية لها فلسفة ، ولها هَوِية ، ولها أيديولوچية معروفة ومتميزة وصامدة أمام تيَّارات الغزو الثقافى لا يعتريها الوهن .. وإن خارت قوى الضعفاء منا أمام إغراءات الغزوات الوافدة .. هذه الفلسفة وتلك الأيديولوچية يعرفها القاصى والدانى من أبناء أُمتنا .. يعرفها المتعلم والأُمِّى .. يعيشونها .. يتنفسون رحيقها .. ينظِّمون حياتهم وفقاً لرؤيتها وأحكامها .. إنها العقيدة الإسلامية .

إذا كانت الفلسفة هى الفكرة التى تمثل القاعدة العامة المقبولة جماهيرياً والقادرة على ضبط الآراء والنظريات فتلك هى العقيدة الإسلامية .. وإذا

كانت الأيديولوچية هى الفكرة التى تحدد رؤية المجتمع لذاته وللعالَم من حوله .. فتلك هى العقيدة الإسلامية ولا فخر .

لو حسنت النوايا .. سنكتشف أن الإسلام لم يأت بالشعائر والعبادات فقط .. لا .. بل جاء بنظام اجتماعى وسياسى واقتصادى وثقافى فذ .. محدَّد المعالِم وواضح وضوح الشمس .. ومستقيم لا اعوجاج فيه .. ومعتدل لا إفراط فيه ولا تفريط .. بل إن الشعائر والعبادات التى يتضمنها هذا النظام تلعب دوراً فعَّالاً فى تثبيت أركانه وليست مجرد تهويمات غيبية .. ويكفى أن نقرأ قول رسول الله ﷺ : « رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر » [1] .

هذا النظام الفريد ينظم حياة الفرد والجماعة .. ابتداءً من الكيفية التى ينام الفرد بها إلى الكيفية التى تُعقد بها الاتفاقيات الدولية بين دولة المسلمين والدول الأجنبية .

الفلسفة العربية موجودة إذن ، والاقتناع العام بها جاهز والحمد لله .. ولكن يبقى أن ننظر إليها بعين منصفة .. ساعتها سندرك جيداً أننا أُمَّة عريقة لها رؤيتها وشخصيتها ، لها هويتها الصامدة التى لم تضعف حين ضعف حكامها .. ولم تضع حين ضاع مفكروها وتاهوا بين الهويات والفلسفات .

على إخواننا إياهم أن يتقوا الله فينا ولا يجرونا لمزيد من الضياع والحيرة .. لقد جربنا فلسفات الغرب فما أفلحنا .. وجربنا فلسفات الشرق ففشلنا فشلاً ذريعاً .. أما كفانا تجارب ؟ ألم يحن الوقت لنعود إلى ذاتنا ؟ ! تلك الذات القوية التى نشرت النور فى العالمين وبنت حضارة عريقة تتحاكى بها الأمم حتى اليوم .

عقيدتنا الإسلامية .. وهَوِيتنا الإسلامية .. هى التى صنعت حضارتنا وقدَّمتها

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

للعالَم . . لقد كان للعرب حاضرتان قبل الإسلام . . حاضرة عرب المناذرة القريبين من الفرس وحاضرة العرب الغساسنة القريبين من الروم . . لكن لا هؤلاء ولا أُولئك أقاموا حضارة متميزة عن جيرانهم . . أما الذين صنعوا الحضارة فهم اولئك الذين حملوا العقيدة وتربُّوا على فكرها . . كانوا بدواً أجلافاً يعيشون فى صحراء قاحلة . . لكن العقيدة أو الفلسفة أو الأيديولوچية أو الهَوِية الإسلامية فجَّرت طاقاتهم ، وجعلتهم سادة بعد أن كانوا عبيداً . . وخلقت منهم المفكرين والعلماء والحكام الذين لن ينساهم تاريخ البَشرية .

* *

لقد جرَّب مجتمعنا فلسفات وأيديولوچيات ونُظُماً اجتماعية واقتصادية عديدة . . وسلك - مثل كل المجتمعات - طرقاً ملتبسة فى مسيرته الحضارية من باب التجربة والخطأ للبحث عن الحلول المناسبة لمشاكله ، وأيضاً لإرساء القواعد الصحيحة التى يقوم عليها بنيانه .

وفى هذا الإطار فشل عصر النهضة الأول الذى بدأ مع تولى محمد علىّ الحكم أوائل القرن الماضى . . أما عصر النهضة الثانى الذى بدأ مع ثورة ٢٣ يوليو فما زال حتى اليوم يمر بمرحلة التجريب بحثاً عن ملامح خاصة وقوة دفع ذاتية فاعلة . . واستغرقت مرحلة التجريب هذه ٤٢ عاماً هى عمر الثورة إلى اليوم [(١)] .

ولعلنا نتفق على أنه قد آن الأوان لوضع نهاية لمرحلة سلوك الطرق الملتبسة، وتصحيح الاختيارات الخاطئة ، التى أورثتنا عللاً وأمراضاً ما زلنا نعانى منها على مختلف المستويات. فإن علينا أن نواجه أنفسنا بالدروس المستفادة من هذه المرحلة ونجتهد جدياً كى نتخلص من الاختيارات الخاطئة ، لندخل عصر الصحوة بروح قادرة على التمييز بين الطيب والخبيث ، وقادرة أيضاً على الصمود أمام اجتهادات وقدرات الغير .

وأهم هذه الدروس - وأولها - هو حاجتنا الملحة إلى الوعى بالذات . . الوعى بشخصيتنا وقدرتنا ومواطن الضعف فينا،حتى يتيسر لنا التغلب عليها .

---

(١) ابريل ١٩٩٤

ومن جوهر الوعي بالذات إدراك حقيقة الاستقلال عن الآخر .. ذلك الذى يقف على الشاطىء المواجه .. وأيضاً إدراك حقيقة الإستقلال عن تراثه الحضاري وسلوكه ومنهجه ، فلا نركن إلى تقليده والتشبه به ظناً بأن مجرد هذا التقليد هو الهدف المنشود من الصحوة .

تقليد المظهر الحضارى لهذا الآخر سواء أكان فى الشرق أو فى الغرب لا يعنى أبداً أننا تحضَّرنا مثله .. لكنه يعنى فقط أننا نستهلك حضارته دون أن نكون قادرين على صنع حضارة خاصة بنا ، نابعة من ذاتنا .

فاقتناء أفخم السيارات والطائرات والبِدَل والفساتين والكرافتات لا يعنى أننا أصبحنا مثل أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا فى القدرة على صنع الحضارة .. قد نصبح عصريين مثلهم نرتدى القبعة بدلاً من العمامة ، لكن العصرية شيء وبناء الحضارة شيء آخر .

انظر مثلاً إلى ما صنعه « كمال أتاتورك » رائد النهضة فى تركيا .. لقد أراد أن يجعل من بلاده قطعة من أوروبا .. فما فعل أكثر من أن نقلها من رأس العالَم الإسلامي إلى ذيل العالَم الغربى .. صحيح أن بها صناعات ثقيلة لكنها صناعات تجميع لما ابتكره العقل الغربى .. ويكفى أن أوروبا ذاتها لا تزال تنظر للتركي على أنه نوع مختلف لا يصح أن تقبله وتتعايش معه ببساطة .. على الرغم من أن هذا التركى رفض العمامة ولبس القبعة بل وسنَّ القوانين التي تُعاقِب مَن يجهر بارتداء العمامة فى الشوارع .. والأكثر من ذلك أنه قَبِل بوجود قوات حلف الأطلنطي على أرضه ، تقوم بحراسة الحدود الشرقية للعالَم الغربي من الخطر الشيوعى ، أيام أن كانت الشيوعية خطراً على الغرب .

طبعاً .. أنا لا أقصد أن الوعى بالذات الذى أنادى به كبداية للصحوة المرجوة يعنى مجرد العودة إلى العمامة البيضاء والجلباب القصير واللحية الطويلة .. ولا أقول إن توافر السواك على الأرصفة يعنى أننا أصبحنا نعى

ذاتنا بالدرجة التى تؤهلنا لحمل أعباء وتكاليف بناء الحضارة .. هذه مظهرية سطحية يجب أن نحذر منها .. فما ندعو إليه أعمق وأكبر بكثير من هذا . لأنه يتعلق بالفكر ، بالأيديولوچية ، بالروح الواعية الخلاقة المبدعة المستقلة .

إذا كانت العصرية تعنى التشبه بمن ملكوا حضارة العصر وتقليدهم فهذا أمر سهل وسريع وليس لأحد الفضل فيه .. أما الصحوة أو اليقظة التى ننشدها فتعنى التحرر من التقليد والوصول إلى مرحلة التمييز المستقل ، استعداداً لبناء حضارة مختلفة ، ذات سمات خاصة .

إن بدائياً من الاسكيمو يمكنه خلال أسبوع واحد أن يتبدل إلى عصرى أمريكى بعد أن يرتدى « الجينز » ويدخن « المارلبورو » ويضع « الأكسسوارات» اللازمة من السلع الاستهلاكية السريعة ويحفظ بعض الكلمات والإشارات والحركات الأمريكية .. لكن الصحوة ، الحضارة ، بناء المجتمع المتحضر أصعب من ذلك .. إنها درجة من التكامل فى القدرة على التفكير ، واتساع الرؤية وعمق الروح والنضج الاجتماعى وخلق الوعى الإنسانى بذاته .. والإحساس بالمسئولية واستقلال الشخصية والاستعداد للخلق والإبداع والقُدرة على الاختيار والرفض والاستغناء عن الآخرين .

وبالتأكيد .. لا يمكن الحصول على هذه الأشياء كلها بمساعدة مصممى «كريستيان ديور » .. ولا منظمى مسابقات ملكات الجمال .. ولا عن طريق كتالوج « البوردا » .. لكن يمكن الحصول عليها بالتعب والعمل والصبر وشجاعة الروح والاستقامة الأخلاقية والإخلاص والتضحية وتحمل الحرمان ومواجهة الخطر وكسب الجدارة والوعى والصمود .

ما نريده اليوم .. ليس سلعة تُستورد من بلد آخر وإنما مزرعة ينبغى أن تُبذر بذورها فى النجوع والقرى وأحياء المدن .. فى حضانات الأطفال

والكتاتيب والمدارس والجامعات .. فى المصانع والمتاجر .. فى المقاهى .. وعلى أرصفة الشوارع .. كى تظهر وتنمو وتأتى ثمارها حركة اجتماعية نشطة للبناء .

* *

ولن نستطيع أن نبنى الحضارة قبل أن نعود إلى ذاتنا الإسلامية مرة أخرى .. إلى هَوِيتنا الحقيقية .

وإذا كان بعض كُتَّابنا ومفكرينا يسخر من هذه الدعوة المُلِحَّة ، ويزعم أننا لا نرى حلا إلا فى القديم ، أو أننا نتطلع إلى الخروج من أسر التجارب الماضية دون أن يكون لدينا التصور أو القدرة على تحديد الاتجاه .. فإن الواقع يقول لهؤلاء جميعاً إن العودة المطلوبة اليوم هى عودة إلى الأمام وليست عودة إلى الخلف .. صحيح أن مسافة الرحلة تستغرق ١٤ قرناً من الزمان .. لكننا - قطعاً - سنعود إلى ذاتنا الحقيقية .. لنكتشف أساسنا الذى بُنِى آنذاك بأيدى رجال سادوا العالَم .. ذلك إذا كنا جادين فى أن يكون بناؤنا قوياً صلباً ، لا هشاً متصدعاً .

وما دام الإسلام موجوداً فى حياتنا - والحمد لله - فلن نكون فى حاجة إلا إلى إثارة الوعى به .. لكى نراه بعيون موضوعية غير حاقدة ولا مبغضة ، عيون الباحث المدقق الساعى إلى استخراج الدرر ليُعاد توظيفها فى المجتمع مرة أخرى .. حتى ينصلح حال هذا المجتمع بعد طول عناء .

وفى هذه الحالة ستكون مهمة المصلح الداعى بالإسلام أيسر ألف مرة من مهمة المصلح الداعى بالفكر الليبرالى أو الفكر اليسارى .

إن رجلاً يقف بين المسلمين ليوقظ وعيهم مستعيناً على ذلك بآيات القرآن الكريم وبسُنَّة النبى ﷺ سيُقابَل باستحسان مؤكَّد ، وبترحاب وبشاشة ، أفضل من ذلك الذى يقف بينهم ليشرح محاسن « البراجماتية » ، أو ليُفصِّل لهم مقولات « ماركس » و « لينين » و « انجلز » .

* *

إن محاولات كثيرة قد جرت لتحويل هَوية أُمتنا من الهَوِية الإسلامية ذات البُعد العقائدى والتشريعى المعروف إلى هَوِيات متعددة ، وتعريفات شتَّى . . فنضيع فى زحمة الهَوِيات والتعريفات . . ونحن غافلون .

ويعتبر القرن العشرون أخطر فترة مرَّت بها الأُمة الإسلامية وخاصة مصر . . من حيث محاولات تغيير الهوية . . للتحول من الإسلام إلى العروبة .

ففى مطلع هذا القرن كان هناك خلافة إسلامية وكانت المحاكم كلها محاكم شرعية والقانون المُطبَّق هو الشريعة . وكان نجوم المجتمع وقادة الفكر رجال من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا . وكان التنقل بين أقطار الأُمة الإسلامية حراً ، ولا توجد جمارك بينها ، والحالة الاقتصادية فى غاية الرخاء ، فالعملة ذهبية وفضية ، وأغنى من أوروبا وأمريكا واليابان .

والفجوة التكنولوچية مع الغرب تكاد تكون معدومة ، فالسكك الحديدية فى مصر هى ثانى سكة حديد فى العالَم والذى نفذَّها هو « ستيفنسون » مخترع الآلة البخارية ذاتها . وبوستة القاهرة هى أول بوستة فى آسيا وإفريقيا . وقناة السويس هى أكبر مشروع هندسى فى الوصل بين القارات . ومدرسة الطب والهندسة فى مصر هى أول مدارس علمية تكنولوچية فى الشرق العربى وفى إفريقيا . وعلَم مصر مرفوع حتى خط الاستواء . وأول مدرسة بنات فى إفريقيا وفى الشرق العربى كله هى مدرسة الممرضات ، مضى عليها ٧٠ عاماً قبل مطلع القرن العشرين . ومستشفى قصر العينى هى أكبر وأحدث مستشفى فى إفريقيا والشرق العربى . ومضى عليها هى والمستشفى الأميرى بالإسكندرية أكثر من نصف قرن من الزمان قبل مطلع هذا القرن .

كل ما كنا نعانيه هو نكسة عسكرية وفجوة علمية محدودة الأبعاد نسبياً عن الآن وانخفاض فى نسبة التعليم فرضتها الهزيمة العسكرية وتفكيك للمصانع الحربية والمصانع الكبيرة ورجال الحرف ، فرضتها هزيمة الثورة العرابية .

فى منتصف هذا القرن كنا قد تحولنا – دون أن نشعر تقريباً – من الإسلام

إلى العروبة . وأصبحت العروبة هى الأيديولوچية والأنشودة والأمل والشعار الذى تردده الدولة والصحافة والجماهير !

لقد نفخوا فى عنصر اللغة (واللغة ليست إلا أداة للتعبير) فجعلوا منها أيديولوچية وفكرة وهوية وأحلوها محل الفكرة الإسلامية والهَوِية الإسلامية تمهيداً للمرحلة التى نعيشها حالياً وهى مرحلة رفع لواء العَلمانية .

لا يعنى هذا بالطبع أن المنادين بالعودة إلى الهَوِية الإسلامية - وأنا منهم - يقفون ضد الوطنية (حب الوطن والأهل) أو العروبة (اللغة) .. لكننا نُنزل الوطنية والعروبة منزلهما الصحيح بين الانتماء .. فيكون انتماؤنا الأول والأخير للإسلام .. ثم يأتى حبنا لوطننا وللغتنا ولتراثنا وما إلى ذلك محكوماً بانتمائنا الإسلامى .

لقد أحب رسول الله ﷺ وطنه مكة .. لكنه فى سبيل عقيدته وهَوِيته وانتمائه هجر مكة ووقف يناجيها يوم الهجرة ويبثها أشواقه .

ولا أعتقد أن هناك مَن هم أحرص على حب الوطن والتمسك باللسان العربى الفصيح من أُولئك الذين يدعون إلى العودة مرة أخرى إلى الهَوِية الإسلامية ، والارتباط بالفكرة الإسلامية الشاملة .

وغنى عن البيان أن الحكم تحت لواء القومية العربية - أيسر ألف مرة ومرة من الحكم تحت لواء الفكرة الإسلامية .. ذلك لأن شعار القومية العربية لا يرتب فى حد ذاته أية التزامات على الحكام ، أما الحكم تحت شعار الفكرة الإسلامية فيُملى على الحكام التزامات خطيرة معروفة للخاصة والعامة ، وقد أثبتت التجربة أن الحكم تحت شعارات القومية والعروبة والوحدة العربية يحقق مكاسب كثيرة يستحق أن يتقاتل الناس بالانقلابات والثورات للفوز بها والسيطرة على كرسى الزعامة من أجله .. أما الحكم تحت لواء الإسلام فمهمة ثقيلة وابتلاء ، يسأل الناس ربهم العافية منه .

❊ ❊

لقد كشفت مسيرة التاريخ الحديث أن أُولئك الذين رفعوا شعار القومية العربية لم يُقدِّموا برهاناً واحداً على صدقهم مع أنفسهم أو مع شعوبهم .. وبقى أن يكشف التاريخ الدوافع الحقيقية التى حرَّكت هؤلاء ليعملوا باسم القومية العربية وتحت شعارها على إيقاظ روح الشعوبية ، والتعصب للعنصر العربى ، وهم يعرفون جيداً أن الأساس الفكرى الذى تقوم عليه شخصيتنا الإسلامية هو : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى » [1] .

نعم .. لقد كرَّس دعاة القومية العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين جهودهم كى يحل مفهوم القومية العربية محل مفهوم « الأمة الإسلامية الواحدة » تمهيداً لفرض العَلمانية وسلخ أُمتنا من ردائها الإسلامى .. فالقومية العربية كائن هلامى قوامه اللغة لا غير .. أما الأُمة الإسلامية فكائن واقعى ملموس قوامه الدين والبناء الفكرى والثقافى والتراث المرجعى والشخصية الاجتماعية .

وقد عاش غير المسلمين فى ظل الأُمة الإسلامية .. تنفسُّوا هواءها ، وتربَّوا على تقاليدها ، ونشأوا على آدابها ، وإن اختلفت ديانتهم مع ديانة الأغلبية الكاسحة من أبناء هذه الأمة .

وحين أيقن الغرب بعد تجارب عديدة أنه من الصعب أن يخترق صفوف هذه الأُمة بالجيوش اتجه إلى إيقاظ الروح الشعوبية بين أقطارها .. فكانت الدعوة إلى القومية العربية فى الأقطار العربية ، وكانت الدعوة إلى « التتريك» فى تركيا على يد « أتاتورك » ، وكانت الدعوة إلى عودة إيران إلى تاريخها الفارسى القديم على يد « رضا بهلوى » مؤسس الأسرة البهلوية .

وهكذا كانت الدعوات الانفصالية عن الأُمة الإسلامية تأتى دائماً من

---

(١) رواه أحمد فى المسند : ٥ / ٤١١

شخصيات تعمل لحساب الغرب ، وتتم كلها بشعارات توقظ الروح الشعوبية وتضعها فى مواجهة الروح الإسلامية الشاملة .

لم يكن مصادفة إذن - والأمر كذلك - أن يصبح « نجيب عزُّورى » خريج الكلية الإنجيلية فى بيروت - التى تحوَّلت فيما بعد إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت - هو أول مَن نظم مؤتمراً يدعو إلى القومية العربية فى باريس عام ١٨٧٥ . . وعُرِف هذا المؤتمر فيما بعد باسم المؤتمر العربى الأول . . وعُرِف « نجيب عزُّورى » باسم صاحب الدعوة للفكر القومى .

ثم ظهر « ميشيل عفلق » ليحول الدعوة الفكرية هذه إلى حزب سياسى، وبسرعة البرق اشتهر أمره وأصبح هو مؤسس فكرة البعث ، وفى عام ١٩٤٢ أصبح رئيساً للحزب الذى كان اسمه آنذاك « حزب البعث العربى » .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن « ميشيل عفلق » تخرَّج هو الآخر فى الجامعة الأمريكية فى بيروت .

على كل حال . . لم يكتف الفكر القومى بهذين الرائدين المنظِّرين ، لكن المسيرة تطلبت أيضاً أن يخرج من هذا الفكر رائد ثالث من رُوَّاد الحركة القومية هو « أنطون سعادة » الذى شكَّل حزب القوميين السوريين . وهو كسابقيه تخرَّج فى الجامعة الأمريكية ببيروت .

ألا ترى معى الآن أن هناك أكثر من علامة استفهام قد قفزت على فكرة القومية العربية لتجعل منها لغزاً كبيراً فى حياتنا ينبغى فهمه وفك طلاسمه ؟!!

ألا تلاحظ ذلك الدور الخطير الذى لعبه نصارى الشام كى تحل فكرة القومية العربية محل الأمة العربية المسلمة ؟ !!

قد يقول قائل : ألم يكن جمال عبد الناصر رائداً للقومية العربية وأبرز دُعاتها . . فلماذا تتجاهله ؟

وأسارع فأقول : إن عبد الناصر كان فعلاً أعلى الأصوات الداعية للقومية

العربية بحكم موقعه ومؤهلاته الشخصية التى أهَّلته دائماً ليكون فى الصدارة من أية فكرة يتبناها ، لكن ارتباط عبد الناصر بفكرة القومية العربية جاء متأخراً قياساً بالقيادات الشامية السابقة ولم يكن الفكر القومى من بنات أفكاره .. ويمكننا أن نشير هنا إلى الآراء العديدة التى أكدت أن عبد الناصر عثر على فكرة القومية العربية بالصدفة ليوجد لنفسه بها تياراً شعبياً يستند عليه بعد أن أدرك أنه خسر شعبيته التى كان يبنيها استناداً إلى الفكر الإسلامى سواء أثناء ارتباطه بالإخوان أو أثناء التصاقه بالأزهر إبَّان فترة العدوان الثلاثى .

ونضيف إلى هذه النقطة ملاحظة أخرى هى أن عبد الناصر ومعظم رفاقه من الضباط الأحرار ارتبطوا بشكل أو بآخر بعزيز المصرى وشربوا من أفكاره وتفتحت عيونهم بمساعدته على ما كان يُصوِّره لهم من انتصارات « أتاتورك» حتى نجح عزيز المصرى فى أن يجعل من « أتاتورك » قدوة صالحة لكل الضباط الأحرار ، وقد عبَّر عن ذلك صراحة كل من عبد الناصر والسادات فى خطبهما العامة .

أريد أن أقول من خلال كل هذه المشاهدات أن فكرة القومية العربية لم تظهر فى حياتنا لوجه الله ، كما أنها لم تأت بصورة عفوية .. ولكنها جاءت لتضرب فكرة أعمق وأشمل كانت قائمة منذ زمن بعيد فى منطقتنا وهى « الأُمة الإسلامية الواحدة » .. وقد استطاع رجال مدفوعون إلينا بأيد أجنبية مثل «عزُّورى » و « عفلق » و « انطون سعادة » و « جورج حبش » أن يجعلوا الفكر القومى (بما يخلقه من مناخ عَلمانى) هو الأساس فى بناء شخصيتنا ، أما الفكر الإسلامى (بما يخلقه من بيئة إسلامية روحاً ودماً) فقد أصبح يأتى فى المرتبة الثانية ، ودوره بيننا لا يتعدى دور الديكورات المطلوبة لتجميل الصورة .. القرآن أصبح ديكوراً ، والسُّنَّة أصبحت ديكوراً ، وكذلك الصوم والصلاة والزكاة والحج .

إن مَن يقرأ أدبيات الزعماء البارزين فى العالَم العربى فى أواخر القرن

الماضى وأوائل هذا القرن من أمثال عرابى والبارودى والأفغانى ومحمد عبده والكواكبى ومصطفى كامل ومحمد فريد وحتى سعد زغلول يجدهم جميعاً يتحدثون عن مصر باعتبارها جزءاً من الأُمة الإسلامية ولم تكن قد تمكنت منهم بعد مؤامرة القومية العربية .

ولقد وُضِعت فكرة القومية العربية دائماً - على غير الحقيقة والواقع - فى موقع صدام مع فكرة الوحدة الإسلامية حتى أصبح عندنا بمرور الزمن من الرفاق القوميين العرب مَن يقول إن الدين الإسلامى دين عربى ، اسمه عربى وانتماؤه عربى ورسوله عربى ولسانه عربى . . أى أنه دين مصنوع خصيصاً للعرب وهم الذين تكرَّموا به على العالمين وإن شاءوا جعلوه حكراً عليهم . . وهو بذلك ينسف فى هدوء عالَمية الدعوة الإسلامية وشمولية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

لهذا . . أستطيع أن أقول إن « ميشيل عفلق » ورفاقه السابقين واللاحقين قد نجحوا ، لكنه نجاح مؤقت بإذن الله . . ولن يغرينا على الاستسلام لهذا النجاح الذى حققوه ما نراه من ظواهر غير مشجعة ومن مناخ غير موات .

* *

وياليتهم اكتفوا بذلك . . !!

فقد ظهر بعدهم جيل جديد من أدعياء التنوير ما زالوا يتساءلون عن هَوِيتنا : هل نحن فراعنة . . أم نحن أفارقة ، أم شرق أوسطيون . . أم ننتمى إلى حضارة البحر المتوسط ؟؟ ونسوا أننا مسلمون روحاً ولحماً ودماً . . لم يجرأوا أن ينطقوها لأن هذه الهَوِية تستنهض الهمم ، وتستثير مكنونات النفوس . . وتستدعى أنماطاً معينة من السلوك لا يريدونها .

وفى مواجهة ذلك الإنكار للذات . . انظر إلى عدونا كيف يرانا ؟ !! كيف يحدد هَوِيتنا على لسان خمسة من كبار الباحثين الإسرائيليين فى كتاب بعنوان « الحكم والمعارضة فى عهد السادات » الذى ترجمته وأصدرته الهيئة العامة للاستعلامات عام ١٩٨٦ .

يقول الكتاب بالحرف الواحد : « فمع تداعى الولاء للإسلام الذى أعطى المؤمنين إجابة شاملة على مسألة مكانتهم فى العالَم فى المجتمع ظل الكثيرون بدون إطار كاف للانتماء ، وعند البحث عن رؤية بديلة تتلاءم مع الواقع الجديد . تنقَّل زعماء ومفكرو مصر المعاصرة بين أفكار مستوردة تقوم على مبادىء دنيوية من أشكال الحكم والمجتمع القائمة على الليبرالية والحياة البرلمانية ، والاشتراكية ، والديموقراطية ، وكذلك إطارات تضامن ذات طابع قومى ، محلى مصرى ، أو إقليمى عربى قومى ، وبين مجموعة المفاهيم الدينية الإسلامية » .

ثم يقول الكتاب : « إن هذه المحاولات لإيجاد بديل كاف للنظام الدينى الإسلامى لم تحقق نجاحاً ملموساً ، فكانت النتيجة المستمرة هى الشعور بالحيرة والضلال » .

وفى موضع آخر يقول الكتاب : « لقد سعى عبد الناصر إلى أن يجعل الهَوِية المصرية جزءاً من الكيان العريض للأمة العربية وعنصراً مرشحاً لزعامتها .. وجاء السادات ليحدد الهَوِية الوطنية من خلال التراث التاريخى الحضارى المصرى الخاص الذى ترجع أُصوله إلى عهد الفراعنة ، وقال السادات عنه إنه أقدم من الإسلام ومن العروبة على حد سواء » .. ثم يضيف الباحثون الإسرائيليون :

« لقد كانت المعارضة الإسلامية أهم بكثير من المعارضة الحزبية وكانت متزايدة التأثير ، وكان ذلك دليلاً على أن النظرية التى قدَّمها السادات لم تُثبت كفاءتها كبديل يتساوى فى قيمته مع نظام العقيدة الإسلامية » .

وبعد .. فإن هذا الكتاب يُعد ببساطة شهادة شاهد من أعدائنا تؤكد بوضوح أنه لا مخرج لنا من أزمة الهَوِية التى نعيشها إلا بالرجوع إلى الإسلام « الذى يعطى إجابة شاملة على كل التساؤلات المتعلقة بجوانب الحياة »

. . لا هوية لنا إلا الإسلام . . تذوب فيه كل الانتماءات الأخرى عربية كانت أو مصرية .

فيا إخوتنا . . أيها الغرباء . . التائهون فى أزقة الحياة الضيقة . . الباحثون عن الحقيقة . . عن الهَوِية . . يا من تلوكونها ألفاظاً سقيمة . . أعجمية . . تعالوا يا صحاب إلى كلمة طيبة . . عودوا معنا إلى النبع الأصيل . . إلى هَوِيتنا جميعاً . . إلى الإسلام . . وكفاكم هذه شهادة شاهد من أعدائنا .

* * *

الدين هنا .. والدين هناك

لأسباب معلومة . . ترتعد فرائص إخواننا العَلمانيين والشيوعيين من كل خطوة إيجابية تخطوها الدولة لتعميق المفاهيم الإسلامية فى النفوس . . حتى ولو كانت هذه الخطوة هى السماح لعلماء الإسلام بالحديث إلى الناس عبر شاشة التليفزيون . . عندئذ تنبرى أقلام إخواننا العَلمانيين والشيوعيين المتعصبين ليملأوا الدنيا صراخاً بأن هؤلاء « الناس » يشدون الجماهير إلى الخلف ويحضُّون على إقامة المجتمع الدينى الذى يحكمه رجال الدين كالمجتمعات الأوروبية فى العصور الوسطى .

إن إخواننا الذين لاكوا من قبل ، ويلوكون اليوم ، وسوف يلوكون فى المستقبل هذه المخاوف من أن يحكمنا رجال الدين لا يُعبِّرون فى الحقيقة عن واقعنا وعن شخصيتنا ، لكنهم يُقلِّدون الغرب وساسته فى كل شىء ، حتى فى الخوف من حكم ما يسمونهم برجال الدين .

والواقع أن الخوف من حكم رجال الدين فى المجتمع الإسلامى ، وفى مصر على وجه الخصوص ، ليس له ما يبرره على الإطلاق ، لسبب بسيط جداً قيل من قبل آلاف المرات ، هو أن مجتمعنا الإسلامى لا يعرف كياناً اسمه رجل الدين كما يعرفه الغرب ، لكنه يعرف فقط « عالِم الدين » ، وشتَّان ما بين المفهومين والتعريفين .

نحن لم نسمع أبداً أن علماء الدين عندنا طالبوا بأن يحكموا ، بل إن تاريخنا يشهد بأنهم تركوا الحكم خشيةً ورهبة ، لأنهم يدركون مسئوليته وأعباءه ، ويسألون الله العافية منه ، ويعلمون جيداً أن هذا الأمر لا يُعطَى لمن يطلبه .

إنما دورهم اليوم الذى يستمسكون به ، وهو دورهم وواجبهم فى كل زمان

ومكان هو أن يطالبوا الحكام بأن يحكمونا بالإسلام .. إضافة إلى ذلك فإنه ليس فى مفهوم المطالبين بحكم الشريعة إحالة الحكم إلى علماء الدين ، ولا ندرى من أين يأتى المتخوِّفون بخوفهم من أن يحكم علماء الدين .

ويقينى أن علماء الدين فى الإسلام ليس هناك ما يمنحهم الحكم ولا يمنعهم منه إلا مبدأ واحد عام يُطبَّق على جميع فئات الشعب ، ذلك هو مبدأ الصلاحية ، فعلماء الدين فى مفهومنا - كمسلمين - بَشَر ، وليس من المنطقى أن يحكموا - فقط - لأنهم علماء دين ، كما أنه ليس من العدل أن يُمنعوا من الحكم - فقط - لأنهم علماء دين .

وأغلب الظن أن هؤلاء الإخوة الذين يبدون التخوف بمناسبة وبدون مناسبة من حكم رجال الدين عندنا يجهلون طبيعة تركيبة المجتمع المسلم ، واختلافها تماماً عن تركيبة المجتمع الغربى ، إنهم يحاربون هنا رجال الدين ، يحاربون شيئاً لا وجود له ، يحاربون عدواً لا يعيش هنا وليس له مكان بيننا ، والسبب فى ذلك واضح بطبيعة الحال .. فهؤلاء الإخوة يعيشون فى مجتمعنا المسلم بأجسادهم ، بينما عقولهم ومشاعرهم تنتمى إلى مجتمعات أخرى ، وثقافات مختلفة ، وتراث اجتماعى وسياسى ودينى وفكرى يتعارض مع تراثنا تمام التعارض .

هنا - يا سادة - لا يوجد « رجل الدين » الذى عرفته أوروبا فى العصور الوسطى وجأرت بالشكوى من مظالمه ومن محاكم التفتيش التى ابتدعها ليوقف بها نمو العقل .. هنا « عالِم دين » ، فقيه ، يحث على العلم والعمل ونمو العقل .

هنا « عالِم الدين » لا يؤخذ منه إلا علمه وقدوته ، وهناك « رجل الدين» يعطى صكوك الغفران .

هنا .. كلٌ يُؤخذ منه ويُرَد عليه مهماً علت قامته إلا صاحب المقام صلى الله عليه وسلم ، وهناك سلم دينى يقف على رأسه « رجل الدين » الذى لا تُرَد له كلمة .

هنا .. يوجد أساس ثقافى روحانى معنوى ميَّال إلى التجريد والذهنية ،

مقدَّس للقيم . . وهناك يوجد أساس ثقافى عَقلانى ومادى ومؤسسى وميَّال إلى العينية وعابد للكسب .

هنا . . يقف « عالِم الدين » ليدعو الناس إلى العزة والجهاد والقوة والتمتع أيضاً بالمادة ، وينشر فى الناس مبدأ القِصاص حتى من أبناء الحكام . . وهناك يقف « رجل الدين » ليدعو إلى الزهد فى الحياة ، ويقول للناس : دعوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

هنا . . « عالِم الدين » هو رائد التنوير ، والداعى إلى الصحوة والنهضة . . وهناك ، رجل الدين هو « اسبرين » و « مبرر » .

هنا . . « عالِم الدين » يعيش بين الناس ، ويتعامل معهم ، وهم أحرار فى أن يتعاملوا معه أم لا . . وهناك « رجل الدين » يهبط فوق رؤوس الخلق، وله مقام مقدَّس لا يُمَس .

هنا . . الدين دائماً فى صدام مع الفكر الطبقى ، ويدعو فى أوامره إلى المساواة بين الناس حتى يكونوا كأسنان المشط . . وهناك صار الدين هو البنية التحتية للنظام الاجتماعى الذى مرَّ بمراحل عديدة من الإقطاعية إلى الأرستقراطية إلى الرأسمالية ، فعصر المجتمعات الصناعية الحديثة .

هنا الانصياع لحكم الشرع فى الحلال والحرام ، وهناك الانصياع للقانون مهما كان هذا القانون بعيداً عن أوامر الخالق ونواهيه .

هنا . . « عالِم الدين » ناقل للشريعة وللدين ، وهناك . . « رجل الدين» هو مصدر الأمر الدينى ومرجعه .

هنا . . إيمان بالحقيقة . . وهناك إيمان بالواقع

هنا . . يتسع الدين للاختلاف فى الرأى والنقاش والاجتهاد . . وهناك . . يتعب الدين من المناقشة ، ولا يحتمل الاجتهاد .

هنا . . بيئة دينية قائمة على الأمر : « افعل ولا تفعل » ، وهناك بيئة دينية مختلفة قائمة على الوصايا .

هنا .. « عالِم الدين » فرد ، غير ملزم بأن يحكم ، وهناك « رجل الدين» هو ظل الله على الأرض ، وحامل مفاتيح الجنَّات .

هنا .. وضع ، وهناك .. وضع آخر مختلف .

* *

نعم .. هناك فرق كبير بين مفهوم الدولة الإسلامية ومفهوم الدولة الدينية التى عرفتها أوروبا .. الدولة الإسلامية دولة مدنية يُختار حاكمها من قِبَل الشعب ، ويُحاسَب أيضاً أمام الشعب ، وأحياناً يُعزل إذا لم يؤد أمانته على الوجه الأكمل .. أما الدولة الدينية « الثيوقراطية » فتقوم على أساس غريب عن الإسلام تماماً وهو أن الحاكم ظل الله فى أرضه .. وأنه يحكم بوحى مباشر من الله .. وهو ما عُرِف باسم نظرية « الحق الإلهى » فى الغرب إبَّان العصور الوسطى .

وغنى عن البيان أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا النوع الأخير من الحكم .. ولم تكن دولته أبداً دولة دينية بهذا المعنى .. وإن كان قد شهد فى بعض عصور التخلف مَن خرج من الحكام على الاستقامة وادَّعى لنفسه شيئاً من القداسة .. لكن هذا بالطبع كان شذوذاً وخروجاً عن المألوف ، وهو شذوذ يؤكد النظرية .

يقول علماء الأصول المحدَثون : إن الخلط بين مفهوم الدولة الإسلامية والدولة الدينية يرجع - أساساً - إلى الخلط الكبير بين ما هو إسلامى وما هو دينى ، فكثيرون يحسبون أن كل ما هو إسلامى يكون دينياً .. والواقع أن الإسلام أوسع وأكبر من كلمة « دين » .. والدليل على ذلك أن « الدين » هو إحدى الضروريات الخمس التى جاءت الشريعة الإسلامية لحفظها ، وهى الدين والنفس والعقل والعرض والمال .

من هنا نقول إن الخطأ كل الخطأ الظن بأن الدولة الإسلامية التى ترفع راية

الإسلام وتطبق شريعته لا بد أن تكون دولة دينية .. كلا .. بل هى دولة مدنية تقوم على أساس الاختيار والبيعة والشورى ، ومسئولية الحاكم أمام الأُمة ، وحق كل فرد فى الرعية أن ينصح الحاكم ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر .. وهذا فرض كفاية على المسلمين ، إن فعله بعضهم سقط عن الآخرين .. ويصبح هذا فرض عَيْن إذا قَدَر عليه أحد المسلمين وعجز غيره عنه أو جبن عن أدائه .

والحاكم فى الإسلام مقيَّد غير مطلق .. فهناك شريعة تحكمه ، وقيم توجهه ، وأحكام تُقيِّده ، وهى أحكام لم يضعها هو ولا حزبه ولا برلمانه .. بل وضعها رب الناس .. ولا يستطيع هو ولا غيره من الناس أن يلغوا هذه الأحكام أو يجمدوها .

وقد وضع القرآن الكريم أساس هذه المسئولية المدنية للحاكم والمحكومين فى كثير من الآيات منها على سبيل المثال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ [١] .. و ﴿ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .. و ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [٣] ..

وأيضاً وضعت السُّنَّة المطهَّرة هذا الأساس المتين ليكون واضحاً فى أذهان المسلمين فى قول رسول الله ﷺ : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » [٤] .. وقوله يوم غزوة بدر لما سئل عن المنزل الذى أنزل المسلمين فيه : أهو الوحى يا رسول الله أم هى الحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل هى الرأى والحرب والمكيدة » [٥] .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) الشورى : ٣٨ (٣) طه : ٢٤

(٤) رواه مسلم فى كتاب : المناقب من صحيحه ، برقم (٢٣٦٣) .

(٥) روى ابن هشام فى سيرته حديث الحباب بن المنذر هذا عن ابن إسحاق عن رجال من بنى سلمة ، فهى فيما رواه ابن هشام رواية عن قوم مجهولين ، وذكر الحافظ ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة فرواه عن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة ابن الزبير وغير واحد فى قصة بدر .. وهذا مسند صحيح . والحافظ ابن حجر ثقة فيما ينقل ويروى (راجع الإصابة : ١ / ٣٠٢) .

وقد قال أول خليفة فى الإسلام فى أول خطاب له : « أطيعونى ما أطعتُ

الله فيكم . . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . . إن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوِّمونى » .

والرئيس . . أو الحاكم . . أو الإمام . . أو الخليفة فى الدولة الإسلامية ليس وكيل الله ، بل هو وكيل الأُمة ، هى التى تختاره ، وهى التى تراقبه ، وهى التى تعزله ، وقد قال عمر بن الخطاب : « مَن رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليقوِّمنى » . . وردَّت امرأة على عمر وهو يخطب الناس ، فلم يركبه الكبرياء ولا الغطرسة ولكن رجع عن قوله إلى قولها ، وقال : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وقال عمر بن عبد العزيز : « إنما أنا واحد منكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً » .

وقال صلاح الدين الأيوبى :« إنما أنا عبد الشرع وشرطيه » : أى مهمتى حراسة الشرع وتنفيذه .

وعلى الرغم من كل هذا الوضوح إلا أن البعض يُصاب بالقشعريرة من الشريعة . . ويقول : [إن مجرد وجود الشريعة ككيان فعَّال فى الدولة الإسلامية كفيل بإلغاء دور «الشعب » ولو على المستوى التشريعى . . وهذا انتقاص من « الحرية » والسُلْطة التى ضمنتها نظرية الديمقراطية الحديثة] . . وهذا - بلا شك - خلط غريب ناجم عن عدم الإلمام بجوانب القضية .

لقد نزلت الشريعة بنوعين من التشريع . .

الأول : يتعلق بالتشريع فى العبادات ، والأصل فى هذا النوع من التشريع التحريم إلا ما ورد به نص . . أى أن الناس ممنوعون من إنشاء عبادات أو شعائر من عند أنفسهم ، وممنوعون أيضاً من الزيادة أو النقص فيما شرع لهم الله من عبادات تتعلق بأركان الإسلام الخمس .

والنوع الثانى من التشريع يتعلق بالمعاملات والحدود ، والأصل فى هذا النوع « الإباحة » إلا ما ورد نص بتحريمه أو تقييده . .

أما فيما عدا ذلك فمن حق الأمة أن تُشرِّع لنفسها من خلال نبهائها وأهل

الحل والعقد فيها وذلك فى دائرة ما لا نص فيه أصلاً وهو كثير .. وهو المسكوت عنه الذى قال عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « وما سكت عنه فهو عفو » [1] وهو يشمل منطقة فسيحة من حياة البشر .

وقد أكّدت هذا الاتجاه قاعدة فقهية ذهبية مشهورة فى الإسلام تقول : « لا اجتهاد مع النص .. وما لم يرد به نص فمتروك للاجتهاد » .. والاجتهاد فى التشريع مفتوح أيضاً فيما نُصَّ فيه على المبادىء والقواعد العامة دون الأحكام الجزئية والتفصيلية .

من ثَمَّ تستطيع الأُمة فى ظل الدولة الإسلامية أن تُشرِّع لنفسها فى مناطق واسعة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها تراعى جلب المصالح ودرء المفاسد ، ورعاية حاجات الناس .. ولحسن الحظ فإنَّ كثيراً من جوانب القوانين التفصيلية المعاصرة لا تتنافى مع الشريعة فى مقاصدها الكلية ، ولا أحكامها الجزئية ، لأنها قامت على جلب المنفعة ، ودفع المضرَّة ، ورعاية الأعراف السائدة ، وذلك مثل قوانين المرور أو الملاحة أو الطيران أو العمل والعمال أو الصحة أو غير ذلك مما يدخل فى باب السياسة الشرعية .

وقد جعل الإسلام من الأُمة الإسلامية كلها حارسة على تطبيق الشرع ومسئولة عنه وليس الحاكم وحده .. حرصاً على ألا تتحول الدولة الإسلامية إلى دولة دينية كهنوتية تدعى فئة واحدة منها أنها صاحبة « الحق الإلهى » فى تفسير الأحكام وفهم الآيات .

---

(١) منطوق الحديث كما رواه سلمان مرفوعاً : « ما أحلَّ الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً » (رواه البزار ورجاله ثقات ، كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٧ / ٥٥ ، والحاكم فى المستدرك : ٢ / ٣٧٥ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى) .

هذه هى الدولة الإسلامية المتحضرة التى نريدها . . وهى دولة بعيدة كل البُعْد عن مفاهيم الغرب المتخلفة عن الدولة الدينية . . وبعيدة أيضاً عن مفهوم الدولة العلمانية .

* *

ولم تكن دولة الإسلام فى أى مرحلة من مراحل التاريخ دولة أحادية الدين أو العِرْق أو اللَّون أو اللِّسان . . بمعنى أنها لم تكن تضم المسلمين فقط أو العرب فقط أو البيض أو السود فقط . . بل كانت تضم عناصر متعددة الأديان والأعراق والألوان والألسنة . . ولم يعرف المسلمون طوال تاريخهم - حتى فى أسوأ مراحل تخلفهم الحضارى - مفهوم التطهير العِرْقى . . وكان الإسلام بتعاليمه وقيمه هو الضمان لسلامة البنيان المتعدد المتنوع للمجتمع الإسلامى حتى وصل إلينا اليوم بهذا الانسجام المتميز عن أى مجتمع آخر فى الشرق والغرب رغم أعمال الجهالة التى تظهر بين الحين والحين .

ففى بداية نشأة الدولة الإسلامية عقد الرسول ﷺ مواثيق للوطنية مع اليهود الذين كانوا يشاركون المسلمين فى سكنى المدينة المنوَّرة وما جاورها . . وأصدر « الصحيفة » التى تحدد مفهوم « المواطنة » بما يعنيه من حقوق وواجبات . . وعُلِّقت هذه « الصحيفة » ذات البنود العشرة على نخيل المدينة حتى يقرأها الجميع فيعرفون ما لهم وما عليهم . . ويتعرفون على هَوِية النظام السياسى الذى سيحكمهم .

وكان من أهم بنود « الصحيفة » المبدأ العام الذى بيَّنه الرسول ﷺ لمواطنى الدولة المسلمة من اليهود والنصارى وقرر أنَّ « لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين » .

وحين اختار نصارى نجران ألا يدفعوا « الجزية » لعمر بن الخطاب لإعفائهم من المشاركة فى الحرب . . وعرضوا - بدافع الحمية العربية - أن يشاركوا فى جيش المسلمين . . أنشأ لهم عمر رضى الله عنه لواءً خاصاً فى الجيش سمى

باسم « لواء النصارى » . . وقد شارك هذا اللواء فى فتح بلاد فارس وأبلى فى ذلك بلاءً حسناً .

وعرف النصارى أن راية الإسلام هى الأمن . . لذلك رأينا عند فتح القدس أن البطريرك يأبى أن يُسلِّم مفاتيحها إلا لعمر بن الخطاب . . ويأتى عمر ، ويُصلِّى خارج الكنيسة . . وعندما سُئِل عن هذا الأمر قال : « حتى لا تكون صلاتى بها ذريعة لاتخاذها مسجداً بعد ذلك » . . وكنس عمر رضى الله عنه بثوبه مقدَّسات اليهود والنصارى حفاظاً على مشاعرهم . . وتطميناً لهم على مستقبل دينهم وحريتهم فى الدولة .

وتوسَّع معاوية بن أبى سفيان فى إلحاق المسيحيين بمناصب الدولة العليا . . وحذا حذوه أفراد كثيرون من البيت الأُموى . . فرأينا - مثلاً - الشاعر الأخطل - وهو عربى نصرانى - يحتل منصب شاعر البلاط الأُموى الذى يماثل اليوم منصب المتحدث الرسمى باسم الدولة ووزير إعلامها . . ورأينا أبو القديس يوحنا الدمشقى . . مستشار الخليفة عبد الملك .

وكان فى عهد الخليفة المعتصم أخوان مسيحيان فى قمة السُلْطة . . أحدهما يسمى « سلمويه » كان إليه الحل والربط فى كثير من أُمور الدولة ، والثانى «إبراهيم » . . وكان يحفظ خاتم الخليفة ، وعُهِد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد .

واختار الخليفة عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة « الرها » يدعى « اثناس » مؤدباً ومربياً لأخيه عبد العزيز . . وقد رافق « اثناس » تلميذه إلى مصر عندما عُيِّن والياً عليها ، وقيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد وكثيراً من الدور والبساتين وكان الذهب عنده كأنه الحصى .

وفى عهد الخليفة المعتضد كان عمر بن يوسف والى « الأنبار » مسيحياً . . وقد وافق الخليفة على هذه الولاية ولم يجد فى ذلك غضاضة .

بل إننا نجد فى عهد صلاح الدين الأيوبى - الذى كان يكيل الضربات تلو الضربات للصليبيين .. وزيراً مسيحياً هو « ابن مماتى » .. وكان صلاح الدين لا يجد مانعاً من الاستعانة بخبرته والاستفادة بجهوده والرجوع إليه فى كثير من الأمور .

هذا هو ماضينا المضىء .. فأين تجد مثل هذه « الروح » العادلة فى أى نظام آخر فى ذلك الزمن السحيق .. بل فى هذا الزمن المتحضر الذى لم نر فيه وزيراً واحداً مسلماً فى أية دولة غير مسلمة فى أوروبا أو أمريكا .. ويبدو أننا لن نرى فى المستقبل المنظور ؟!!

* *

الدين عندنا - كمسلمين - لله إذا كان المقصود من المعنى أن العبادات والشعائر تُؤدَّى لله .. لكن الأصح أن يقال : « الدين للناس » .. أو «الدين للمجتمع » .. أو « الدين للحياة » .

إن لفظ « الدين » لا يعنى فقط مجرد العبادات التى تُؤدَّى فى دور العبادة، لكنه يعنى أيضاً النظام الشامل الذى أنزله الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده ليضبط لهم حركة حياتهم على أكمل وجه ، فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية .. وما كان هذا الدين ليأتى إلى الحياة « متطفلاً » لكنه جاء « متفضلاً » لأن الحياة فى حاجة إليه ، وليس بمقدورها أن تنصلح إلا إذا سارت وفق أحكامه .

وحين يقول المولى عَزَّ وَجلَّ فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) . فإنه لا يقصد - فقط - مجرد العبادة كالصلاة والصوم .. لكنه يعنى طاعة النظام العام الذى فرضه سبحانه وتعالى ليُصلح به أحوال الناس .. وبهذا الفهم يكون الإنسان المتدين .. ليس فقط ذلك الذى ينقطع

---

(١) الذاريات : ٥٦

للصلاة والصوم لكنه الذى ينسجم مع النظام العام للدين ، يطيع أوامره ويجتنب نواهيه ، ويضبط نفسه على إيقاعه .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى : إن المنهاج الذى تسير عليه فروع الحياة المختلفة وتتبعه بشكل جَماعى يسمى باصطلاح القرآن « ديناً » .. وهذا واضح فى قوله تعالى عن سيدنا يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) .. ولما كان من غير المُتصوَّر أن يأخذ سيدنا يوسف أخاه إلى دين الملك المشرك ، فإن المعنى الذى يتأكد فوراً عن « دين الملك » إنما هو القانون الذى بمقتضاه يقبض البوليس على المجرمين ، والذى يُحكم به فى المحاكم والمسائل المكتبية والعسكرية ، والذى ينظم أُمور البلاد وعليه يقوم نظام المجتمع بأكمله .

ومن ثَمَّ يتضح أن « دين الله » لا ينحصر فى المساجد والصلاة والصوم والحج وكفى ، وإنما يعنى كذلك اتباع تلك الشريعة الكاملة التى تنبع من رضا الله ، وتندرج تحتها كافة أمور الحياة .

❋ ❋

فالدين عندنا - معشر المسلمين - هو النظام العام الذى ينظم لنا حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية .. وهو الذى وضع لنا أساس الدولة المدنية التى تناقض مفهوم الحكم « الدينى » أو « اللاهوتى » أو « الثيوقراطى » الذى يخلع على الحاكم نوعاً من « القداسة الدينية » فتعقد ألسنة الجماهير عن أن تمارس حقها الطبيعى فى مراقبة أدائه لمهامه ، وتسائله عن أفعاله وإنجازاته .

ومن الظلم الكبير أن نُلصق مفهوم « الدولة الدينية » بالإسلام .. فتاريخ المسلمين - السُّنَّة على وجه التحديد - لم يعرف خلع القداسة على الأُمراء أو العلماء .

---

(١) يوسف : ٧٦

إننا لم نسمع عن الحاكم الذى يُصوِّر نفسه بأنه « ظل الله فى الأرض » إلا من أوروبا إبَّان العصور الوسطى .. وهذا ما يُفسِّر رِدَّة الأوروبيين القوية ضد الدين .. ونظرتهم الازدواجية إلى « الدين » و« الدنيا » ، أو إلى «الدين» و« السياسة » أو إلى « الدين » و« العلم » .

أما نحن معشر المسلمين فليس عندنا هذه النظرة الازدواجية التى تُفرِّق بين أهم العناصر التى تحكم حركة الإنسان والمجتمع ، فالدين عندنا هو نظام الدنيا ، وهو زاد السياسة ، كما أنه الدافع القوى نحو العلم .

وأؤكد أن المسلمين هم أول مَن وضعوا قواعد « الدولة المدنية » .

قال أبو بكر رضى الله عنه بعد لحظات من مبايعته خليفة للمسلمين : « إنِّى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم .. أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم .. فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .. القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه .. والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له » .

وأستطيع أن أحدد ملامح هذه الدولة المدنية الإسلامية فيما يلى :

* الحاكم فرد من الأُمة لا فضل له بسبب الولاية على أحد من المسلمين .

* الحاكم وكيل عن الأُمة فى رعاية مصالحها ، وليس وكيلاً عن الله ، أو مُفوَّضاً إلهياً معصوماً من الخطأ .. فالأُمة هى مصدر السُلْطات .

* ذمة الحاكم المالية منفصلة تماماً عن بيت مال المسلمين ، فليس الحاكم هو الدولة ، وليست الدولة هى الحاكم . من حق الرعية مراقبة الحاكم ومساءلته .. وعزله إذا اقتضى الأمر .

* التزام مبدأ الشورى فى مهمات الأُمور .

* ثم جاء بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ووضع مبدأ فصل السُلْطات ، فعيَّن علياً بن أبى طالب قاضياً للدولة حتى لا تتجمع السُلْطة القضائية مع السلطة التنفيذية فى يد واحدة فتغرى بالفساد والإفساد .

* *

للحاكم فى الإسلام حق واحد .. بينما عليه أربعة واجبات أساسية .. تُعرف اصطلاحاً فى الفقه السياسى الحديث باسم « ضوابط السُلْطة » .

فأما الحق الذى له فهو « حق الطاعة » .. إذ ما دام قد اختير - بالمبايعة قديماً أو بالانتخاب حديثاً - وارتضته الغالبية .. فقد أصبح له على الجميع من مؤيدين ومعارضين حق الطاعة .. وهو حق مشروط بألا يكون فى معصية [1] .. فإذا حدث وأمر الحاكم بمعصية .. هنا .. وهنا فقط .. يسقط حقه فى الطاعة .

أما الواجبات الأربعة التى عليه فهى :

* ألا يفرض نفسه على الشعب .. بل يأتى عن طريق البَيْعة أو صندوق الانتخاب الذى يُجَسِّد إرادة الأُمة .. وذلك بعد أن يرشحه أهل الحل والعقد (قديماً) .. أو يرشحه مجلس استشارى أو حزب ذو صفة شعبية معترَف بها .. معنى ذلك .. ووفقاً لهذا الفهم الإسلامى فإن الحاكم الذى يأتى على أسِنَّة الرماح ، أو بحيل وألاعيب جانبية يكون مفتَقِداً للأساس الشرعى لحكمه .

* أن يكون من حق الشعب مراقبة تصرفاته عن طريق المجالس الاستشارية والرقابية (البرلمان).. ويكون ملزَماً بألا يستعلى على هذا الحق .. أو يتنكر له .. فهو أولاً وأخيراً بَشَر يصيب ويخطىء ، ولا بد من حمايته من وساوس الإنس والجن .. ووساوس مواكب النفاق .. ووساوس نفسه الأمَّارة بالسوء .. ومن ثَمَّ حماية مصالح الناس عنده .. ولن يتحقق ذلك إلا بأن يكون مسئولاً عما يفعل .. وتكون تصرفاته خاضعة للمراقبة .. وكان الصحابة

---

(١) لقول الرسول ﷺ : « على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (متفق عليه - فتح البارى : ١٣ / ١٢٢ ومسلم : ٣ / ١٤٦٩) .

رضوان الله عليهم يسألون النبى ﷺ عن أى أمر يتعلق بأمور السياسة والحكم والحرب والمكيدة ما لم يكن وحياً منزلاً من السماء . . كما كان الرعية يسألون مَن جاء بعده من خلفائه الراشدين الذين كانوا يخافون على أنفسهم من الميل والهوى .

* أن يسمع للنصح من العلماء وأصحاب الاختصاص والخبرة والرأى والمشورة فيما يُعرض عليه من قضايا الحكم والسياسة . . وأن يستجيب للنصح إذا ما ارتكب ما يخالف الشريعة . . التى تمثل النظام القانونى والدستورى للدولة .

* أن يعزله الشعب سلمياً بواسطة مؤسساته المشروعة التى تولى مَن هو خير منه . . إن كان انحرافه خطيراً ولم يسمع لنصح العلماء وذوى الرأى . . ولم يكن فى عزله فتنة تسيل فيها الدماء .

* *

ومَن يتدبر هذه النقاط يدرك تماماً أن النظام السياسى الإسلامى هو الذى وضع مبدأ « الأمة مصدر السلطات » الذى لم يعرفه أحد قبل الإسلام . . فقد كان الحكام قبل بعثة النبى ﷺ يأتون إلى سُدَّة الحكم فى البلاد المتحضرة آنذاك - الروم والفُرس وروسيا - بطرق مختلفة ليس من بينها إرادة الشعب . . فمنهم مَن يأتى بالوراثة . . ومنهم مَن يأتى بالغلبة ، أى بعد أن يتغلب على أقرانه ومنافسيه ويقضى عليهم بالمبارزة أو بالدسائس والاغتيال أو بالحرب ، ومنهم مَن يأتى بعد أن يتزوج أرملة الملك . . وهكذا . . !!

وجاء الإسلام ليضع مبدأ أن « الأُمة مصدر السُلْطات » . . فما أوصى النبى صلى الله علبه وسلم بأن يخلفه رجل مُعيَّن فى الحكم . . بل ترك الأمر للناس . . فاختير أبو بكر رضى الله عنه للخلافة بعد أن رشحه مؤتمر السقيفة الشهيرالذى ضم زعماء الأُمة آنذاك .

وهكذا يتأكد أن الحكومة فى الإسلام بَشرية لا إلهية . . ورئيسها لا قداسة

له ولا عصمة .. بل هو بَشر يُخطىء ويُصيب .. وواجب على كل مَن يعلم خطأه أن ينبهه بالكلمة الطيبة .. والنصيحة الخالصة .. بالحكمة والموعظة الحسنة .. وتزداد المسئولية على العلماء وعلى مَن وضعت الأُمة ثقتها وأملها فيهم ..

* *

وإذا كانت الأُمة مصدر السُلْطات فى دولة الإسلام .. فإن السيادة فى هذه الدولة تكون للشرع الذى يمثل - كما أسلفت - النظام القانونى والدستورى الواجب احترامه من قِبَل الحاكم والمحكوم على حد سواء .. ويشتمل هذا النظام على الحقوق والواجبات .. ويتضمن أساسيات البناء القيمى فى المجتمع .. وينص على العقوبات والحدود التى تردع المجرمين وتحفظ على الناس حقوقهم الأساسية .. أو ما اصطُلح على تسميته بالكليات الخمس : « الروح - العقل - الدين - المال - العِرض » .

وقد خضع الرسول ﷺ كما خضعت أُمته لشرع الله .. الأمر الذى أشاع فى الأُمة الرضا والطمأنينة .. فالجميع أمام الشرع (القانون) سواء .

انظر إلى قوله تعالى فى مخاطبته للرسول ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ (١) و ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢) .. فإن وقع نزاع بين الحكام والمحكومين كان عليهما أن يرجعا إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه .. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (٣) .

ومبدأ السيادة للشرع لا يعنى مصادرة حق الشعب فى سنٍّ ما يحتاج إليه من قوانين لتسيير أُمور الحياة المعيشية .. كلا .. فباب الاجتهاد مفتوح لما فيه

---

(١) التحريم : ١ (٢) المائدة : ٤٩ (٣) النساء : ٥٩

تحقيق مصالح الناس .. أو ما يسمى بالمصالح المرسلة .. ومقاصد الشريعة .. لكن يظل الشرع هو المرجع الأساسى .. حتى لا تطغى مصالح البعض على البعض .. حين يأتى كل حاكم بشيعته ويسن من القوانين ما يكون على هواه وهواهم .. وتضطرب الأُمة بسبب فوضى القوانين ويتعرض أمنها للخطر .

* *

وهكذا سبق الإسلام غيره من النظم فى تحديد ملامح الدولة المدنية .. ومؤسسات الحكم ، وفصل السُلْطات .. ولا يعيبه إطلاقاً أن أدعياء التنوير لم يلتفتوا إلى هذا السبق وهم فى سعيهم المحموم لتقليد الغرب فى كل شىء .. حتى فى عداوته للدين .. مع أن ديننا ينير العقول ، ويعمل على توسيع مداركها ، لتشارك بإيجابية فى صنع الحضارة على وجه الأرض .

* * *

فى الدين والسياسة

كثيراً ما يردد أدعياء التنوير عندنا مقولة أثيرة لديهم هى : « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين » - وهى مقولة مستوردة تُعبِّر عن الفهم العَلمانى لكل من السياسة والدين .

ولو قلَّب هؤلاء النظر فى ديننا الإسلامى لوجدوا أن كله سياسة .. وأنه دين يستعصى على محاولات الفصل والعزلة عن الحياة والمجتمع والسياسة .

الغريب أن هناك من العَلمانيين مَن تأخذه « الفهلوة » إلى أبعد الحدود ، فتُصوِّر له أن الناس لم يعد لها عقول يفقهون بها .. لذلك نراه يصر على أن فصل الدين عن السياسة هو قمة التكريم للدين .

● كيف هذا ؟ !!

● ● لأن المفهوم العَلمانى يحبس الدين فى قفص ذهبى لا يغادره .. حتى يكسوه الغبار وينساه الناس .

والإسلام لا يمكن أن يقبل هذا المنطق على الإطلاق .. الإسلام يتمرد على الحبس والاعتقال .. ولو كان فى قفص ذهبى .

الإسلام جاء ليُحرِّك الحياة .. ويضبط إيقاعها على شرع الله .. جاء ليسير على الأرض .. لهداية الناس وسعادتهم .. لا ليوضع فى متحف فنى يذهب إليه الناس فى مواعيد محددة ليتفرجوا عليه لحظات ثم ينفضُّوا عنه .. أو ليوضع على أعلى رف فى مكتبة البيت لا تطاله يد ولا يتفاعل معه عقل .

❊ ❊

وإذا كانت السياسة تعنى بالنسبة للبعض اللعب بالثلاث ورقات والفهلوة والقدرة على قلب الحقائق واستخدام الألفاظ البرَّاقة من أجل خداع الجماهير، فما أتعسهم . . وما أتعس سياستهم .

وإذا كان الدين يعنى بالنسبة للبعض لَىّْ عنق الآيات والأحاديث لتحقيق أهداف خاصة . واستخدام المنابر للعب بعواطف عباد الله المؤمنين الخاشعين من أجل مآرب دنيوية رخيصة . فما أشقاهم بما فهموا من الدين ، وما أتعسهم حين يقفون بين يدى مالك الملك : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١) .

لقد فهمت أُمم من قبلنا هذا المفهوم « البغيض » عن الدين والسياسة ، وتمادت فى ضلالها لدرجة دفعت أهل العلم فيها إلى « تبديل » ما أنزل الله عليها من كتاب ، فحقَّت عليها كلمة ربها فدمَّرها تدميراً . . وحين أرادت أن تنهض من عثرتها كان شعار هذه النهضة : ألا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين ، لأن السياسة نشاط كريه ممقوت والدين أفيون يخدر الأعصاب والعقول فيصبح الإنسان من السهل السيطرة عليه وقيادته فى أى اتجاه .

أما نحن - أُمَّة الإسلام - فقد كرَّمنا الله سبحانه وتعالى بمفهوم غاية فى الرقى والتحضر للنشاط السياسى ، وبمفهوم أكثر عمقاً ووعياً لدور الدين فى حياتنا ، وحين أدرك علماؤنا الأوائل هذين المفهومين قالوا : إن الإسلام دين ودولة لا فصل بينهما . . ديننا يهيمن على سياستنا لترشيدها وتهذيبها . . وسياستنا تخدم ديننا من خلال ما تحققه من مصالح الناس . . ويكفى أن خليفة المسلمين - فى النظرية السياسية الإسلامية - هو ذلك الشخص الذى يقوم على رعاية الدين والدنيا معاً .

ويقول الإمام الأصولى فخر الدين الرازى المتوفى سنة (٦٠٦هـ) فى

---

(١) الشعراء : ٨٨ - ٨٩

كتابه « نهاية العقول فى دراسة الأصول » : إن السياسة هى علم الرياسة . . وهى تاج العلوم . .

ويقول أيضاً : « إن تدبير أُمور الرعية والجيش وجباية الأموال من أصعب الصنايع ، ولا يصير الإنسان عالماً فيه إلا بعد أن يمارس ويشاهد ويتعلم من غيره . . » .

هذه هى السياسة فى الفكر الإسلامى القويم قبل أن يختلط بالمفاهيم الاستعمارية المستوردة التى حوَّلت السياسة فى أذهاننا إلى « بولوتيكا » وضحك على الذقون ولعب بالثلاث ورقات .

السياسة عندنا كمسلمين كانت - ويجب أن تعود - كلمة محترمة فى حد ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها ممن يمارسها ، ومن الطريقة التى تُمارَس بها .

المُحدَثون من فقهاء علم السياسة عندنا يقولون : إن السياسة علم الرياسة بصرف النظر عن نظام الحكم . .

السياسة هى أن تسوس الناس ، فإن سستهم انطلاقاً من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ كنتَ حاكماً إسلامياً وإن سستهم بغير ذلك فأنت بما سست به ، وهذه هى القيمة التى ترفع من قدر نظام حكم وتخفض من قدر نظام آخر . وانطلاقاً من هذا الفهم فإن انحياز الحاكم أو المحكوم إلى نظام ما للحكم هو عَيْن العمل السياسى ، وهو عَيْن الدين أيضاً . . ويقع فى باب البحث عن مقاصد الشريعة .

* *

ولأن الإسلام يرفض رفضاً باتاً أُكذوبة الحكم الإلهى ويمتعض من فرية الحاكم المُلْهَم ، فإن السياسة فى الإسلام تقوم على ركائز واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض ، ولا مجال فيها أيضاً للتنصل من مسئولية الفرد ومسئولية الحاكم عن النظام السياسى الذى ارتضاه الطرفان للحكم .

إن مجموعة الحدود والنصوص القطعية المحددة الواردة فى كتاب الله وسُنَّة نبينا ﷺ تضع العلامات والركائز ومصابيح الإنارة أمام عربة الحاكم . .

أما الحاكم فعليه أن يجتهد بنفسه ، ويأخذ باجتهاد علماء الدين والمستشارين ، لكى يحدد لنفسه كيف يسوس الناس ، وهو فى النهاية مسئول أمام الله عَزَّ وَجَلّ عن الكيفية التى ساس بها خلق الله .

وقديماً اختلف الحكام المسلمون فى اجتهاداتهم حول الكيفية التى يسوسون بها الناس ، بل اختلف الخلفاء الراشدون أيضاً فى اجتهاداتهم حول مسألة الحكم ، وقدّم كل منهم تجربة « سياسية » مختلفة ومتميزة عن الآخر وهم - على اختلافاتهم جميعاً - من أهل الجنة إن شاء الله .

الحاكم - إذن - هو الذى يسوس ، والدين هو الذى يضبط هذه السياسة ، ثم إنه فى النهاية مسئول أمام الله وأمام الجماهير عن سياسته . وهكذا . . فإن السياسة بمعناها الصحيح فرع أصيل يخرج من شجرة الدين ، خاصة الدين الإسلامى الذى اهتم ببناء الدولة ، وجعل أمر الحكم شورى بين الناس .

* *

وهناك فارق كبير بين « تسييس الدين » و « تدين السياسة » . . المفهوم الأول يحمل معنى بغيضاً . . لأنه يرتبط باستغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية طارئة . . أما المفهوم الثانى فيعنى إضفاء الصبغة الدينية على السياسة . . لتقييدها بالأحكام والقواعد التى يفرضها الدين . . والهدف من تدين السياسة ليس - كما يزعم البعض - وضع نظام « ثيوقراطى » يكون حاكمه هو ظل الله فى الأرض ، ولكن وضع نظام « مدنى » متميز له شخصية مستقلة . . وسمات حضارية غير تابعة .

والإسلام يتفرد بين الأديان كلها بأنه لا يعرف نظرية الفصل بين ما هو سياسى وما هو غير سياسى ، إذ أن القواعد والأُطر التى وضعها لنا الله سبحانه وتعالى تسعى إلى تنظيم حياة الفرد والجماعة فى كل شئونهم بمنهج خاص مختلف عن غيره من المناهج . . ابتداءً من آداب الجِماع بين الزوجين وعقود البيع والشراء والديون ، وانتهاءً بقواعد الحرب والسلام وتبادل الأسرى مع الدول الأجنبية .

ولقد شهد القرن العشرون - للأسف - كثيراً من صور « تسييس الدين » في حين لم يشهد إلا حالات نادرة جداً من صور « تدين السياسة » .. والسبب الرئيسى فى هذا أن الأغلبية العظمى من حكامنا على امتداد العالم الإسلامى فضلت أن تضع الإسلام « على الرف » وعطلوا قواه الكامنة المحركة، واتخذوا بدلاً منه أيديولوجيات وعقائد وشعارات سياسية مستوردة .. ولكن .. عندما حاصرتهم المحن من كل جانب .. وتأكدوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه .. عادوا إلى الإسلام ليتحدثوا إلى الناس بلغته ، ويرفعوا راياته وآياته .. حتى يضمنوا التفاف الجماهير حولهم ، ضاربين أسوأ الأمثلة لتسييس الدين فى الظروف الاستثنائية .

حدث هذا مع عبد الناصر أثناء العدوان الثلاثى ، وحدث مع السادات الذى ظل رئيساً مؤمناً حتى قويت شوكته بعد حرب أكتوبر ثم انقلب يهاجم الحجاب والمحجبات .. وحدث أيضاً مع صدام .. ويحدث الآن مع القذافى الذى يرفع شعارات الإسلام ويطالب بعودة الخلافة الفاطمية رداً على الحصار الدولى [١] .

نريد أن نرى مرة واحدة محاولة جادة لتدين السياسة ، وكفانا من « تسييس الدين » .. فقد سئمنا هذا الأسلوب وكرهناه .

* *

نحن لسنا فى حاجة اليوم إلى أن نلعن « السياسة » .. ونفصلها عن الدين .. بالعكس .. هناك ضرورات كثيرة تملى علينا الربط بين الدين والسياسة ، وتنمى الجانبين عند الجماهير العريضة حتى تتفاعل مع قضايا المجتمع وتتخلى عن سلبيتها .

إننا ننادى بضرورة إثارة الوعى السياسى عند الجماهير .. وتنميته .. لأن ذلك قد أصبح من أساسيات خطط التنمية .

أقصد أن الإنسان القائم بالنشاط اللازم للتنمية الاقتصادية من صناعة وزراعة وتجارة وخدمات عامة لن يكون إنساناً بنّاءً ، متحمساً قادراً على الصمود ، إلا

---

(١) تتعرض ليبيا لحصار دولى بسبب الاتهام الغربى لها بارتكاب أعمال ارهابية فيما يعرف بأزمة لوكيربى .

إذا كان إنساناً له وجهة نظر فى الحياة وله تصوره الخاص عن المستقبل ، ولديه الوعى الكامل بحقوقه وواجباته كمواطن .. باختصار أن يكون كائناً سياسياً بكل ما تعنيه كلمة سياسة من معان .

وقد أثبتت التجربة عندنا ، وعند آخرين ، صدق هذا الرأى ، فالإنسان السياسى الواعى لدوره ، المدرك لرسالته فى الحياة ، هو الذى يتمتع بالاستقرار والتوازن النفسى ومن ثَمَّ فهو القادر على العطاء والقيام بواجبه نحو بناء بلده وتنميتها اقتصادياً .

ولا يمكن أبداً أن نتصور إنساناً منتجاً ونشيطاً يستطيع أن يعيش بمعزل عن المشاركة السياسية .

عادة .. يغيب هذا البُعد عنا ، ويتوه وسط مئات القضايا والمطالب والمشكلات التى نعيشها ، ولا ندرك حاجتنا إلى المشاركة السياسية - للأسف - إلا فى فترات الانتخابات حينما نكتشف - فجأة - أن عدد الناخبين فى المناطق الأكثر تحضراً لا يزيد على ١٠ ٪ من الأصوات الانتخابية المسجَّلة .

يُفسِّر البعض هذه الظاهرة حين يتحدثون عنها فى وقتها (فقط) بأن لدينا أُمِّية سياسية .. ويقول آخرون : إنها ليست أُمِّية سياسية وإنما لا مبالاة وإحجام عن المشاركة اعتقاداً بأن هذه المشاركة لن تُقدِّم ولن تُؤخِّر وأن النشاط السياسى هو نوع من الترف الذى يمارسه مَن لديهم الوقت والمال والجاه .

الغريب أن كل القوى السياسية فى مصر تعرف « أُس » الداء .. لكنها لم تتقدم خطوة واحدة نحو العلاج .

إننا فى أمَسِّ الحاجة إلى قيادات سياسية واعية وناضجة بدلاً من كثير من القيادات التى ترقص على الحبال الآن باسم العمل السياسى ، والعمل السياسى برىء منها تماماً .

إن تجارب المشروعات الحضارية التى طُرِحت فى مصر - منذ الثورة [1]

---

(١) ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

على الأقل حتى الآن - لم تكتمل فى الغالب الأعم ، والسبب هو أن النظام السياسى الذى احتضن هذه المشروعات الحضارية لم يكن نظاماً قوياً ضارباً بجذوره فى أعماق الجماهير ، لذلك ما إن اختفت رموز نظام سياسى مُعيَّن عندنا حتى اختفى النظام بأكمله .

وغنى عن البيان أن تنمية الوعى السياسى عند الجماهير هو وحده القادر على تطوير هذا النظام وتدعيمه وحمايته ، ولو تحقق لنا ذلك لكان أعظم إنجاز يسجله التاريخ فى القرن العشرين ، ولعله - من وجهة نظرى - يأتى فى الترتيب قبل إنجاز أهداف الخطة الخمسية للتنمية الاقتصادية .

ليست هذه قضية ترفيَّه . . أبداً . . ولكنها قضية البناء والاستقرار والتطور . . إنها قضية تسبق كل القضايا .

* *

وإن من أروع القواعد الأصولية فى الفقه السياسى الإسلامى ذلك الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ - : « مَن استعمل رجلاً على عصابة من المسلمين وفيهم مَن هو أرضى للّه منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١).

لقد فهم كثير من الناس هذا الحديث الشريف على أنه مرتبط فقط بمجالات العمل والإنتاج مما اصطلح الفقهاء على تسميته بـ « الولاية الصغرى » مع أن المتأمل فيه سرعان ما يكتشف ارتباطه الوثيق بالشأن الأهم فى حياة الأمة ، وهو قضية الحكم والسياسة . . أو ما اصطلح على تسميته بـ « الإمامة العظمى » .

فالحديث الشريف يؤكد على أن الحكم - أو الاستعمال - فى المفهوم الإسلامى لا يرتبط بالمظاهر ، كالعمائم واللحى والثياب القصار ، كما

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس ، والحديث صحيح .

لا يرتبط بالحسب والنسب والمودَّة والقُربَى والثقة ، وإنما يرتبط يالعلم والخبرة وسعة الأُفق والدراية بأمور الحكم وسياسة الرعية وشئون الاقتصاد والعلاقات الدولية وكل ما من شأنه أن يحفظ مقاصد الشريعة ويدعم وحدة الأمة ويثبِّت أمنها وسلامة أراضيها ويبعث نهضتها .. فمَن استعمل رجلا على عمل من أعمال الحكم - الولاية العظمى - لا تتوافر فيه هذه الملكات « الدنيوية » إلى جانب التُقى والورع وعدم الاتهام فى الدين .. فقد خان الله ورسوله والمسلمين .

والذى « يستعمل » هنا ليس رئيس العمل أو الحاكم أو الوزير فقط .. لكن المواطن العادى أصبح مسئولاً عمن « يستعمله » من خلال الاضطلاع بدوره فى الانتخابات على مختلف المستويات .. فإذا انتخب رجلاً لموقع معيَّن من مواقع الحكم مهما صغر شأنه وهو يرى فى الرعية مَن هو خير منه ، وأرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله وأئمة المسلمين .

فالمحك الأساسى للاختيار والاستعمال هو « الخيرية » أو «الصلاحية» أو « الكفاءة » .. وتجدر هنا الإشارة إلى أن الذين يقومون على الحكم ، طبقاً للمفهوم الإسلامى الصحيح ، ليسوا هم المشايخ والفقهاء ولكن أهل الخبرة والكفاية والتميز فى كل مجالات الحياة من المسلمين أو من غيرهم إذا اقتضى الأمر ، ما دام فى ذلك تحقيق لمقاصد الشريعة ومصالح الناس .

بالطبع .. قد يكون هناك من المشايخ والفقهاء وعلماء الدين مَن له خبرة بالحكم وشئون السياسة .. حينذاك يكون اختياره للاستعمال - إذا اختير - لهذه الصفات .. وليس لمجرد أنهم مشايخ .. كما أنه من الظلم أن يُستبعدوا من أُمور الولاية لمجرد أنهم مشايخ وإن تحققت فيهم شروط الخبرة والكفاءة .

هذا المفهوم « الواسع » و « الشامل » لحديث النبى ﷺ ينفى تماماً عن الإسلام تهمة الحكم الدينى الذى عرفته أوروبا فى العصور الوسطى .. فالحكم الدينى نمط من الحكم لم يعرفه الإسلام .. وإن اجتهد البعض ليقولوا

إن عدداً من الحكام فرضوه فى عصور التخلف والانحطاط فإننا نؤكد أن الإسلام لم يقر مثل هذا النمط من الحكم ، وليس فى الإسلام رجال دين يزعمون لأنفسهم سلطانا روحيا يتحكمون به فى دنيا الناس .

* *

وإن الديمقراطية التى نعرفها اليوم لا يمكن أن يرفضها الإسلام لمجرد أنها تحمل اسما أعجميا أو لأنها نشأت فى غير بلاد المسلمين .

هذا فهم قاصر يجب معالجته بالمنطق والحُجَّة .. فالقرآن الكريم تضمن ألفاظاً أعجمية .. وجعلها من أفصح كلمات لغتنا الجميلة مثل « الفردوس » و« جهنم » و« سندس » و« استبرق » .. وغيرها .. والديمقراطية ليست عقيدة جديدة .. وإنما هى شكل من أشكال تنظيم الممارسة السياسية فى الدولة .. يوزع الاختصاصات .. ويحدد المسئوليات .. ويعطى لكل سُلْطة مداها .. حتى لا تطغى السلطات بعضها على بعض .

هذا التنظيم إبداع عقلى .. بشرى .. استفاد من خبرات الممارسة السياسية فى مختلف الحضارات التى سبقت نشأة الحضارة الأوروبية .. وبالطبع كان لإسهام الحضارة الإسلامية الجانب الأكبر والأساسى فى هذا المجال .

فالإسلام هو أول من أسقط العصمة والأُلوهية عن الحاكم أو الخليفة أو الرئيس .. وجعله رجلاً من عامة الشعب .. يُخطىء ويُصيب .. وأمره بأن يستشير الناس فى أُمور الحكم والسياسة .. ويطلب منهم أن يُقوِّموه إذا أخطأ .. وهذه كلها كانت مبادىء سياسية جديدة على العقل البَشرى الذى اعتاد على أن ينظر للحاكم على أنه إله ، أو شبه إله .

ومع تطور المجتمع الإنسانى فى كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .. تطور أيضاً النظام السياسى حتى ثبت الآن أن الديمقراطية هى أفضل شكل تنظيمى نطمئن إلى أن مؤسساته المختلفة - الأحزاب والبرلمان والحكومة والنيابة العامة والقضاء الدستورى وجهاز المحاسبات وما إلى ذلك - قادر على تحقيق مقاصد الشريعة فى مسألة الحكم والسياسة .

نحن نستخدم السيارة والطائرة ، ومن السفه أن نناقش شرعية ذلك الاستخدام . . وبالقياس نستطيع أن نقول إننا نتمسك بالديمقراطية . . وبمؤسساتها التى تنظم حياتنا السياسية . . وتضمن لها الاستقرار والاستمرار . . وتوفر مناخ الحرية الذى أراده الله سبحانه وتعالى لعباده حين خلقهم أحراراً .

وليس صحيحاً أن الديمقراطية تتناقض مع تطبيق الشريعة الإسلامية التى تعنى فى نظر البعض أن « الحاكمية لله » .

إن هذا الكلام لا يُعبِّر عن فهم صحيح للديمقراطية ، ولا عن فهم صحيح للشريعة . . فالديمقراطية - كما قلت - ليست ديانة ولا عقيدة لكنها نظام . . وفى كل نظام هناك ثوابت يجب ألا تُمَس حتى وإن كانت هناك حرية كاملة للشعب فى أن يُشرِّع لنفسه .

فى بريطانيا - التى هى موطن الديمقراطية الأول - هناك « الماجنا كارتا » التى تمثل ثوابت المجتمع وقيمه . . ويتوقف عندها سقف الحرية . . بالضبط كما تمثل الشريعة لنا سقف الحرية الذى يجب عدم اختراقه .

أما مصطلح « الحاكمية » فهو للأسف مصطلح غير إسلامى . . لم تعرفه عهود السَلَف ولا الخَلَف حتى العصر الحديث . . وادعاء أن الحاكمية - التى هى نسبة إلى الحاكم - لله سبحانه وتعالى ادعاء خاطىء . . فالحاكمية للبَشر وليست لله عَزَّ وجَلَّ . . لأن الحاكم بشر يحكم بما أنزل الله . . فهو يُطبِّق حكم الله ، بمعنى أحكامه وقواعده العامة التى قررها سبحانه وتعالى ، وهو فى ذلك - أى الحاكم - قد يُخطىء وقد يصيب . . فإذا ما قلنا إن الحاكمية لله . . فقد أشركناه فى صفة الأُلوهية أو أنزلنا الله سبحانه وتعالى من عرشه ليتولى هو - بذاته العلية - تطبيق الحكم على الناس . . وفى كلتا الحالتين تجاوز كبير وجُرأة على الخالق جَلَّ شأنه .

ونستطيع أن نقرر أن القرآن الكريم لم يسند الحاكمية لله عَزَّ وجَلَّ ، وإنما أثبتها لولى الأمر . . حتى لا يعفيه من مسئوليته أمام ربه وأمام الرعية الذين ارتضوا أن يحكمهم بحكم الله .

يقول جَلَّ شأنه : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ (١) . . ويقول : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ ﴾ (٢) .

ولعلنا نلاحظ هنا جلياً ذلك الفرق بين الحاكم - بكسر الكاف - وهو المخاطَب فى الآية الأولى - أى النبى ﷺ ، وبين المُشَرِّع الأكبر وواضع الحُكم وهو الله سبحانه وتعالى .

وبهذا الفهم قال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عمر : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » (٣) .

فالحاكم - فى الإسلام - هو الذى يقوم على تنفيذ حكم الله باجتهاده وإرادته . . ولذلك فهو المسئول عن ذلك الاجتهاد وتلك الإرادة ، وهذا يؤكد أن الحكم لله . . والحاكمية للبشر .

* *

ولقد أعطى الإسلام اهتماماً كبيراً لبناء « الدولة » . . وجعل لها مساحة واسعة فى التشريع . . وخصَّها بقواعد محكمة قطعية وثابتة لا مجال لأن يُختلف فيها أو يُختلف عليها . . ولكنه من ناحية أخرى ترك لنا مساحة من الحرية فى جانب كبير من التشريع والتنظيم فى أمور تحتمل تعدد الرؤى والاجتهادات التى يُقدِّمها أهل الاختصاص من ذَوى العلم والكفاءة والخبرة ممن ترتضيهم الجماهير كممثلين فى المجلس التشريعى (البرلمان). . وهؤلاء يكون تشريعهم من قبيل الاجتهاد لما فيه مصالح الأُمة . . وهو باب كبير من أبواب الاجتهاد لا يملك أحد أن يغلقه إلا إذا كان ديكتاتوراً مستبداً يرفضه الإسلام .

وبهذا الفهم أجمعت الأُمة كلها إجماعاً قطعياً مستنداً إلى مئات النصوص المحكمة أن الحُجَّة القاطعة والحكم الأعلى هو للشرع لا غير . . فما حكم فيه الشرع بحكم قاطع فقد حُسم أمره وأُغلق ملفُّه ، إذ لا اجتهاد مع النص . .

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) يوسف : ٤٠ (٣) متفق عليه .

أما ما كان من موارد الاجتهاد . . أو تركته الشريعة عفواً . . وأحالت فيه الى الخبرة البَشرية باعتباره من شئون دنيانا فهذا الذى يصول فيه الناس ويجولون فى إطار مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية . . وهذه هى المساحة التى يختص بها أعضاء البرلمان ورجال التشريع . . وهى نفس المساحة التى يُساءل عنها كل صاحب رأى ، ويتميز فيها كل صاحب اجتهاد . . وهى مساحة كبيرة تتسع لكل ما يستجد فى أمور حياتنا ومصالحنا .

هذه هى الأمانة التى حملها الإنسان . . ويُساءل عنها أمام ربه . . وأمام أهله وشعبه .

وإذا حدث وتعارض حكم الله عَزَّ وجَلَّ مع اجتهادات البَشر أو قوانينهم . . هنا لا بد أن تكون الغلبة لحكم الله . . فهو المرجعية التى لها السيادة على ما عداها من مرجعيات .

إن الحرية مقدَّسة فى المنهج السياسى الإسلامى . . وفى نطاق التشريع البشرى ، لكنها مُقيَّدة ، ويجب أن تُقيَّد ، بعدم الإضرار بالآخرين ، وعدم الخروج على المعلوم من الدين بالضرورة . . والمعلوم من الدين بالضرورة مسائل محدودة ومنضبطة ، ولا مجال فيها لمزايدة مزايد . . فليس من الحرية فى شىء - طبقاً للمنهج الإسلامى - حرية البغاء مثلاً ، أو حرية الاتجار فى الهيروين ، أو الطعن فى الأنبياء والمرسلين .

هذه حرية مدمرة . . تهدم ولا تبنى ، لذلك فهى حرية مرفوضة ومدانة ، أما حرية الاختلاف فى الرأى ، وحرية التشريع ، وحرية العمل . . فهى مقدَّسة ومُصانة ، لأنها حرية تضيف إلى رصيدنا ولا تسلب منه .

* *

والإسلام دين رحب . . يتسع لتعدد الآراء والاجتهادات . . والقول بأنه يرفض تعدد الأحزاب السياسية جهل يحتاج إلى تصحيح وتوضيح .

● ما هو الحزب السياسى . . وما دوره فى حياتنا ؟

● ● إنه تجمع يضم مجموعة من المواطنين لهم رأى واحد ، واجتهاد واحد . . فى المسائل المتعلقة بقضايا الأمة والوطن . . ويتم التعبير عن رأيهم واجتهادهم أمام الجماهير فى محاولة لإقناعها بأن اجتهادهم هو الأفضل ، وبالتالى فهم الأوْلى بتولى مقاليد الحكم لفترة معينة ، ثم ترى الجماهير رأيها فى مدى صلاحية هذا الحزب للحكم فترة أو فترات تالية . . ذلك لأن هناك أحزاباً أخرى مُنافِسة تخاطب الجماهير وتحاول الحصول على تأييدها .

وفى هذا الجو تتعدد الرؤى والاجتهادات ، وتتنافس بحرية تامة . . والإسلام - بلا شك - مع حرية الرأى ، وحرية الاجتهاد . . ولا يقف فى وجه مَن شاء من المسلمين أن يقترح على أُمته ما هو أصلح لها بقدرته العقلية والخُلُقية . . والناس لهم حريتهم المطلقة فى الإقبال عليه أو الانصراف عنه .

ما حظر الإسلام قط حرية الرأى ، وليس هناك دين اتسعت آفاقه ، وترك للمجتهدين فيه أن يستدلوا كيف شاؤوا بما يريدون مثل الإسلام .

ولفضيلة أستاذنا الشيخ محمد الغزالى كلمة مأثورة فى هذه القضية . . حيث يقول : إن الأئمة الأربعة ، الشافعى وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل ما هم إلا أصحاب وجهات نظر فى فهم الإسلام ، لذلك فإننى أعتبرهم يمثلون أربعة أحزاب .

ولما كانت القاعدة الفقهية تقول : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . فإننا نقول : إنه قد ثبت من مسيرة الحياة الإنسانية أن النظام السياسى الذى يقوم على الحزب الواحد لا يوفر الحرية لشعبه ، فى حين أن النظام الذى يعتمد على التعددية الحزبية يكون أقرب إلى الحرية . . لذلك صارت التعددية الحزبية واجبة لتحقيق الواجب الأكبر المتمثل فى الحرية والعدالة لأبناء المجتمع.

ونحن - كمسلمين - لا نخاف التعدد ، ولا نرهب اختلاف الآراء والمناهج والبرامج . . فلقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم فى فهم النص المحمدى

عندما قال لهم رسول الله ﷺ : « لا يُصلِّيَن أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .. فمنهم مَن أخذ هذه الجملة على محمل التشجيع المعنوى وشحذ الهمم لا غير ، فلما أدركه العصر قبل أن يصل إلى بنى قريظة صلَّى ، مخافة أن يفوته وقت الصلاة ، ولم ير فى تصرفه هذا أدنى تصادم مع مقولة الرسول ﷺ ، وفى مقابل هذا هناك مَن أصرَّ على أنه لن يُصلِّى العصر إلا بعد أن ينجز وعده فى قتال بنى قريظة .

ولما جاء الفريقان إلى رسول الله ﷺ أقرَّ كل فريق على فعله ، فكلاهما اجتهد ، وكلاهما كان اجتهاده حسناً ومفيداً .

وهكذا .. فإن التعدد لا يعنى التناقض .. وهو فهم غاية فى التحضر والرقى .

* *

ولقد اختلف الراشدان ، أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فى محاربة مانعى الزكاة فى بداية حروب الرِدَّة ، وكانا قد خرجا لتوهما متحالفين من مؤتمر السقيفة ، وأخذ الجدال يتصاعد بين الخليفة أبى بكر وحليفه الأول عمر ابن الخطاب ، ثم التقيا عند النص المقدَّس من القرآن الكريم فانحسم كل خلاف .

* *

خلاصة القول .. إن الحكم الإسلامى لا بد أن يسمح بتعدد الأحزاب السياسية لأنه كلما كثرت الآراء وتنوعت كلما كثرت الفائدة ، ولا بد أن يسمح الحكم الإسلامى بحرية تشكيل الأحزاب حتى للتيارات التى تصطدم بالدين كالشيوعية والعَلمانية ، وذلك حتى يكون من المتاح لأصحابها التعبير عن

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام : ٢ / ١٩٤ ، ١٩٥ ، وقد أخرجه البخارى: ٧ / ٣٢٧ ، ومسلم : ٥ / ١٦٢ ، وغيرهما .

آرائهم ، ، وأيضاً حتى يكون من المتاح مواجهتهم بالحُجَّة والبرهان ، وهذا أفضل للمجتمع المسلم من أن تنقلب هذه التيارات إلى مذاهب سرية .

* *

بهذا الفهم نستطيع أن نحدد مبادىء سبعة كأساس لنظام الحكم الإسلامى . . وهى :

١ - الأُمة مصدر السُلْطات بما فيها السُلْطة التشريعية فيما لم يرد به نص محكم من قرآن أو سُنَّة أو إجماع ، وباب الاجتهاد مفتوح لما يحقق مصالح الناس .

٢ - الفصل بين السُلْطات حتى لا يفرط بعضها على بعض أو يطغى .

٣ - رئيس الدولة يُنتخب من الشعب انتخاباً حراً . . وتتحدد مدة حكمه ، ولا يكون فى الحكم من الخالدين .

٤ - المعارضة البرلمانية جزء هام من النظام السياسى .

٥ - تعدد الأحزاب ضرورة محتومة لتحقيق العدل والحرية .

٦ - انتخاب ممثلين للشعب فى برلمان حر شجاع .

٧ - حرية الصحافة . . وحرية الرأى والفكر والعقيدة .

* * *

مفاهيم مغلوطة

● العلمانية تُؤذِّن فى مالطة :

العَلْمَانية ترجمةٌ غير دقيقة ، بل غير صحيحة لكلمة (Secularism) فى الإنجليزية التى تعنى « الدنيوية » . . ولا صلة للعلمانية - كما يعتقد الكثيرون - بالعِلْم الذى يُعبَّر عنه فى الإنجليزية بكلمة (Science) والمذهب العلمى الذى يُطلق عليه كلمة (Scientism) ولا نسب لها كذلك بالعلم . . فالنسب إلى العِلْمْ فى الإنجليزية هو (Scientific) . والترجمة الصحيحة لكلمة (Secularism) هى - كما قلت - « الدنيوية » لا بمعنى ما يقابل الأُخروية فحسب ، بل بمعنى أخص وهو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد . . وشيئاً فشيئاً صارت العَلمانية فى وجدان منظِّريها تعنى اللادينية وأعتقد أن كلمة (Secularism) ترجمت إلى العربية بلفظ «علمانية » لأن الذين تولُّوا الترجمة لم يفهموا من كلمتى الدين والعلم إلا ما فهمه العقل الغربى منها . . والدين والعلم فى مفهوم العقل الغربى متضادان متعارضان فما يكون دينياً لا يكون بالضرورة علمياً ، وما يكون علمياً لا يكون دينياً .

تقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة (Secularism) : « وهى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها ، وذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا والتأمل فى الله واليوم الآخر ، وفى مقاومة هذه الرغبة ظهرت الـ (Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبَشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم فى هذه الدنيا . وظل

الاتجاه إلى الـ (Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية » .

ويقول قاموس العالم الجديد لوبستر شرحاً للمادة نفسها :

١ - الروح الدنيوية : أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك على الخصوص : نظام من المبادىء يرفض أى شكل من أشكال الإيمان والعبادة .

٢ - الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها فى شئون الدولة .

ويقول معجم أكسفورد شرحا لكلمة (Secular) :

١ - دنيوى أو مادى .. ليس دينياً ولا روحيا .. السُلْطة اللادينية .. الحكومة المناقضة للكنيسة .

٢ - الرأى الذى يقول : إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية .

والعَلمانية .. فى إطار هذه التعريفات كلمة حديثة الاستعمال فى لغتنا العربية شأنها شأن كثير من الكلمات التى أصبحت مصطلحات .. هناك من ينطقونها بكسر العين « العِلمانية » نسبة إلى العِلم ، وهناك مَن ينطقونها بفتح العين « العَلمانية » نسبة إلى العَلم بمعنى العالَم ، أى الدنيا وعليه جرى المعجم الوسيط الذى أصدره مجمع اللُّغة العربية .

والكلمة على كل حال - كُسِرت عينْها أو فُتِحت - مترجمة عن لغة أوروبية ونشأت فى بيئة غير بيئتنا وكان يمكن أن تُترجم بلفظة « لا دينية » لأن معنى الكلمة الأجنبية - كما رأينا - ما ليس بدينى ، وكل ما ليس بدينى فهو لا دينى ولكن اختيرت كلمة عَلمانى أو مدنى لأنها أقل إثارة من كلمة لا دينى .

وكما أن لفظ الكلمة دخيل على معاجمنا العربية فإن معناها ومدلولها - سواء أكانت بكسر العين أم بفتحها - دخيل هو الآخر على فهمنا وشخصيتنا المسلمة .. فتقسيم شئون الحياة إلى ما هو دينى وما هو غير دينى تقسيم غير إسلامى

بل هو تقسيم مستورَد مأخوذ عن الغرب ، وبالتحديد من عصوره الوسطى المظلمة . . وما نراه اليوم فى مجتمعاتنا من تقسيم للأدوار وللمؤسسات إلى دينى وغير دينى ليس من الإسلام فى شىء .

لم يكن فى الإسلام أناس يُسمَّوْن رجال الدين وآخرون يُسمون رجال العلم أو السياسة أو الدنيا ، ولم يعرف الإسلام سُلْطتين إحداهما دينية والأخرى زمنية أو دنيوية ، ولم يُعرف فى تراث الإسلام دين لا سياسة فيه ولا سياسة لا دين لها .

لقد كان الدين دائماً ممتزجاً بالحياة كلها امتزاج الروح بالجسم فلا يوجد شىء اسمه الروح وشىء منفصل اسمه الجسم ، وكذلك كان الدين والعلم ، والدين والدنيا ، و الدين والدولة فى الإسلام .

إن العَلمانية بضاعة غريبة لم تنبت فى أرضنا ولا تستقيم مع عقائدنا ومسلَّماتنا الفكرية ويلفظها بناؤنا النفسى والثقافى بتلقائية دون حاجة إلى البحث والتحرى .

لذلك فإننا نؤكد لحاملى لوائها فى بلادنا أنهم يُؤذِّنون فى مالطة . . ولن تكون بضاعتهم رائجة أبداً بيننا . . لأن بضاعتنا المحلية أرقى وأنقى وأقوى من كل مستورَد .

ونحن نؤكد لهم أن مصر لن تكون « عَلمانية » أبداً وفيها الأزهر ، ودستورها ينص على أنها دولة إسلامية ، والشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع . . مصر دولة إسلامية . . بل هى زعيمة العالَم الإسلامى . . ولن تكون عَلمانية أبداً . . فاستريحوا . . !!

* *

● هذا هو المستحيل :

منذ سنوات مضت . . حاول الرئيس التونسى السابق الحبيب بورقيبة أن يضع برنامجاً للنهضة وبناء الدولة . . لكنه للأسف تصوَّر أن الإسلام يقف

حائلاً دون تنفيذ هذا البرنامج .. فأخذ يُروِّج للاتجاه العَلمانى بكل السبل والوسائل .. وتمادى فى ذلك إلى أبعد حد .. فأصدر قراراً بإلغاء صيام رمضان بحُجَّة أن الصيام يعطل الإنتاج .. كما منع الأذان فى وسائل الإعلام .. ومنع الصلاة أثناء العمل .. واجتهد فى أن يطمس كل مظهر إسلامى فى بلده .. وحوَّل جامعة الزيتونة الإسلامية العتيقة - التى تضارع الأزهر عندنا - إلى جسد ميت غير قادر على الحركة .. فصارت هيكلاً كهنوتياً لا يعرف من الإسلام إلا اسمه ، ومن القرآن إلا رسمه .. ثم حدث ما لا بد منه .. انتهى عصر بورقيبة وبدأ عصر جديد .. تغيَّرت الشعارات والرموز .. واكتشف بورقيبة أنه كان يحاول المستحيل .

نعم .. كان يحاول المستحيل ، فلا تونس انسلخت من إسلامها ولا الناس امتنعوا عن الصيام والصلاة والحج .. ولكن ما حدث - يقيناً - أنه ضيَّع على وطنه ثلاثة عقود دون نهضة حقيقية وبناء مستقيم .

● هل يمكن إحداث النهضة مع إهمال الدين ؟

● ● هذا هو المستحيل بعينه .. فالإسلام قوة محركة ودافعة لأى مشروع مأمول للنهضة الجادة والنمو الحقيقى .. وهو سلاح فعَّال .. لا يمكن الاستغناء عنه فى معركة البناء والتحضر .. الإسلام هو الذى حوَّل المسلمين الأوائل من حفاة جفاة غلاظ القلوب .. إلى بناة للحضارة .. رعاة للعلوم والفنون .. والإسلام هو الذى وضع قواعد حقوق الإنسان .. وعلَّم البَشرية أن الله عَزَّ وجَلَّ كرَّم بنى آدم .. من حيث هو بنى آدم .. بصرف النظر عن دينه وجنسه ولونه .

والإسلام هو الذى أمرنا بالعمل وإتقان العمل .. وغرس فينا حب الحياة وإعمارها .. لدرجة أننا مأمورون إذا قامت القيامة وفى يد أحدنا فسيلة أن يزرعها .. والإسلام هو الذى علَّمنا أن نسعى فى الأرض .. وأن نتعلم .. وننقل العلم إلى غيرنا .. وأن نجتهد فى نشر الخير والعدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الناس .

فكيف يكون عندنا هذا الرصيد المعنوى والروحى الهائل ثم نتطوع بأن نضعه على الرف ونحن فى أَمَسِّ الحاجة إليه ؟ !

إن الإسلام يُحرِّك العقل والقلب .. وإذا حدث ذلك اشتعل الإنسان حماساً .. وطلّق البلادة إلى الأبد .. وما أحوجنا اليوم إلى متحمسين غير متبلدين .

❊ ❊

● عَشوائية الفكر :

وفى مصر اخترقت ظاهرة العشوائية حياتنا فى كل المجالات والاتجاهات .. ولم يعد من السهل ملاحقتها ومحاصرتها .. كنا فى الماضى نتحدث عن أحياء عشوائية .. ومرافق عشوائية .. وعِمالة عشوائية .. وتعليم عشوائى .. واليوم نرى أن هذه الظاهرة العجيبة تغزو مجال الفكر .. فالأفكار تظهر عشوائية ، وتنتشر عشوائية ، والألقاب تُخلع على المفكرين بعشوائية .. وهكذا .. !!

فالكاتب الذى يهاجم الدين أصبح مستنيراً .. والمفكر الذى يدعو إلى التحلل صار حراً تقدمياً .. والكاتب الذى يُقحم على الدين ما ليس فيه ويُحمِّله تأويلات غريبة عليه صار « مفكراً إسلامياً » .

أقرب مثال على هذه الحالة « العشوائية » قرأته فى مجلة « حواء » [1] التى أجرت حواراً مع عضوٍ فى حزب التجمع وصفته بأنه « باحث إسلامى » تناول عدداً من قضايا المرأة فجاءت آراء الباحث الإسلامى على النحو التالى :

❊ النقاب ليس من الإسلام .. والحجاب غير ضرورى رغم النصوص الواردة فيه .. فالقرآن لم يأمر بالحجاب إلا لتمييز المرأة « الحُرَّة » عن « الأَمَة » المستعبَدة .. وما دام عصر الإماء قد انتهى نتيجة كفاح الإنسانية الطويل إذن فليس هناك داع للحجاب .. وإن بقيت النصوص (يقصد القرآن الكريم والأحاديث النبوية) تُتلَى للعبادة وجلب البركة .

---

(١) مجلة حواء العدد ١٩٥٣ فى ٢٦ فبراير ١٩٩٤

* يجب أن نُفرِّق بين الإسلام القَبلى والإسلام الحضارى (!!) .. والمفروض عند الاستشهاد بأى نص (قرآن أو حديث نبوى) أن نعرف هل هو من الإسلام القَبلى أم من الإسلام الحضارى .

باختصار .. نحن أمام رجل يقول بأن الإسلام إسلامان .. والأوامر الإلهية الموجودة فى القرآن كانت تعالج قضايا انتهى زمانها .. لذا يجب مراعاة البُعد التاريخى فى التفسير .. وحينذاك ستكون آيات التكليف قد جاوزها الزمن .. ويصبح القرآن الكريم (على المعاش) .. لكن ليس هناك مانع من أن تُتلى آياته للعبادة وجلب البركة دون العمل بها .. ومع ذلك يوصف هذا الرجل بأنه « باحث إسلامى » .

أليست هذه عشوائية فى توزيع الألقاب والمسميات ؟ !!

أما الدكتور فؤاد زكريا أحد قادة التيار العَلمانى المتطرف فى مصر والعالَم العربى ، فله مؤلفات كثيرة ينقد فيها « المسلمات » والعقائد والأصول الإسلامية ، كوجود الله ، والروح ، والخلود والبعث ، والجنة والنار ، ومع ذلك يشكو مر الشكوى من ظلم المجتمع العربى المعاصر .. لأنه لم يعطه الفرصة « الكاملة » للتعبير عن وجهة نظره كما يشاء .

فى كتابه « الصحوة » (ص ١٥٢ وما بعدها) يتهم الدكتور فؤاد الأُمة الإسلامية بأنها ملايين من السائمة التى تُساق هنا وهناك ، فتنساق دون مناقشة، وتُسلِّم دون تدقيق ، وتؤمن دون تحقيق ، فالإيمان بالإسلام - فى رأيه - « تسليم وتصديق لا مجال فيه للتدقيق أو التحقيق » .

هو يدَّعى - زوراً وبهتاناً - أن الجاهليين لم يناقشوا النبى ﷺ قديماً .. وحتى أعلام الفكر الأوروبى الذين أسلموا فى العصر الحديث لم يسألوا ولم يناقشوا .

وفى أكثر من كتاب وبحث ومقال ألح الدكتور فؤاد على فكرة تطوير العقيدة ، وصورً للمسلمين كيف تم التطوير ، وكيف تم بصورة مستمرة ، فى

أوروبا الحديثة . . من « إله ديكارت » الذى يحكم العالم بالرياضيات . . إلى « إله ليبنتس » الذى يشبه الساعاتى العظيم الذى صنع ساعة الكون وضبطها وتركها تعمل دون تدخل ، وأشار إلى « دارون » و « فرويد » وما أحدثاه من تطوير فى عقائد الأوروبيين الدينية ، وعرض لنا عقيدة « اسبينوزا » التى تجعل الطبيعة هى الله ، كما شرح لنا عقيدة « نيتشه » التى تؤكد أن الله قد مات . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فعل الدكتور فؤاد كل هذا . . وكتب ونشر وحاضر ، وحضر المؤتمرات العلمية و« الإسلامية » و« الثقافية » ليزين للناس قبول العَلْمانية ، وتنحية الشريعة بعيداً عن « الدنيا » ، ويرغبهم فى تطوير العقيدة الإسلامية بحيث تساير التطورات الفلسفية فى أوروبا .

إنه لم يختلف مع المسلمين فى التفسير . . كلا . . لقد اختلف معهم فى أصول الدين ذاتها . . ومع ذلك لم يُغَل بقيد واحد يمنعه من نقد عقائد الإسلام والمطالبة بتجاوزها .

على العكس . . لقى كل التكريم من الدولة « الناصرية » حين كان ينال من الإسلام ويدافع عن الاشتراكية والشيوعية والعَلمانية .

لقد أُرسل للعمل بالأُمم المتحدة بعد حصوله على الدكتوراة بسنة واحدة ، وبقى هناك ٥ سنوات ، وهى بعثة ثمينة لم يكن يحظى بها فى ذلك العهد - عام ١٩٥٧ - إلا أهل الثقة ، وعاد إلى مصر عام ١٩٦٢ ليشغل منصب رئيس قسم الفلسفة بآداب عين شمس ، ومنحته الدولة « الناصرية » جائزتها التشجيعية عام ١٩٦٤ ، وأعطته رئاسة تحرير « الفكر المعاصر » ليقول للناس ما يشاء ويثنى على الحكم الفردى ما يشاء . . وبعد ذلك يقول إنه لم يحصل على فرصة « كافية » ليقول للناس ما يريد !!

سنقولها للمرة الألف ولا نمل . . إن التناول المغلوط للقضايا الإسلامية قد يعطى شهرة للباحثين عن الشهرة . . وقد يعطى مالاً للباحثين عن المال . .

لكنه - أبداً - لن يعطينا الاستقرار الذى نبحث عنه لننطلق إلى آفاق التنمية فى مناخ صحى .

والأستاذ أنيس منصور - مثلاً - كتب يقول : « ولا بد أن العالَم كله ضحك علينا عندما استنكر ملايين الأُصوليين فى الجزائر ساقى الفتاة « حسيبة » التى تفوَّقت فى السباق الدولى للجرى . . أى كان لا بد أن تُخفى ساقيها ، فلماذا لا يطالبون بأن يغطى الرجال سيقانهم - أيضاً - لأنها تفتن النساء . . ثم يغطى الرجال وجوههم أيضاً . . فمثل هذه الأراء الشاذة هى التى تجعل المسلمين أُضحوكة بين الأمم » .

طبعاً . . ينسى الأستاذ أنيس أو يتناسى أن العالَم قد ضحك علينا - يقيناً - لأننا تركنا هويتنا وشخصيتنا ورحنا نلبس أقنعة شرقية مرة وغربية مرات . . ومع كل قناع نلبسه أو نخلعه يعلو تصفيق المثقفين « إياهم » وهو فى مقدمتهم . . وضحك العالَم علينا لأن كُتَّابنا الكبار - وهو أولهم - شغلونا زمناً طويلاً بالذين هبطوا من السماء والخزعبلات والخرافات حتى لا ننهض من رقدتنا القاتلة فى وقت كان العالَم يتسابق كله إلى الأمام ونحن نجرى إلى الخلف .

لماذا لا يسخر العالَم من « كول ش مستشار ألمانيا وهو يحكم بلاده بحزب « ديموقراطى مسيحى » تعبيراً عن هويته المسيحية ؟!

ألم يقرأ أنيس منصور آية فى سورة الأحزاب تقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ (١) .

ألسنا مطالَبين جميعاً بأن نطيع هذا الأمر الواضح الصريح بدون أية مزايدات سياسية ؟

إن هذه القاعدة مكرمة للإسلام ولا ينبغى أن نخاف من أن يسخر العالَم

---

(١) الأحزاب : ٥٩

منها .. أما لماذا لا يغطى الرجال سيقانهم .. فالسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل عَوْرة الرجل فى ساقه .. لكنه جَلَّ شأنه جعلها فى عقله .. والله أعلم !

* *

وفى عام ١٩٨٦ عُقِد مؤتمر نسائى فى مصر أثار ضجة كبرى بعد أن اكتُشِف أن مصادر تمويله مشبوهة .. وأن الدعوات التى صدرت عن قياداته تركزت فى الهجوم على كل ما ينتمى ومَن ينتمى للإسلام .

لقد سعت المجموعة التى تزعمت هذا المؤتمر لكى توحى للناس فى الداخل والخارج أنها تتحدث باسم المرأة المصرية ، وساعدها على ذلك عناصر كارهة للإسلام فى الصحف والإذاعة والتليفزيون ، فعرضت آراءها وشعاراتها التى بدت - ولله الحمد - غريبة على مجتمعنا وزماننا ، فمصر إسلامية شاء هؤلاء وأمثالهم أم أبوا ، وزماننا يختلف كثيراً عن الخمسينات والستينات حيث كانت موجة تقليد الشرق والغرب هى السائدة .

وأعتقد أن على مثل هذه المجموعة أن تعرف أن حديثها وهجومها اليوم على الإسلام جاء فى الزمن الخطأ ، وإذا أراد هؤلاء أن يتأكدوا من هذا القول فليخالطوا الناس ويعايشوهم بدلاً من أن يفرضوا على أنفسهم العزلة ثم يتحدثوا بمنطق غريب غرابة العُمْلة التى كان يحملها أهل الكهف أمام العصر الذى أُوقظوا فيه . إن نظرة واحدة على ديوان من دواوين الحكومة أو مكتب من مكاتب الشركات أو وسيلة من وسائل المواصلات العامة والخاصة تؤكد بحسبة بسيطة أن الأغلبية للمسلمين الملتزمين بالصلاة والمسلمات المتزينات بالحجاب وأن هذه الأغلبية فى تزايد مستمر ، فباسم مَن إذن تتحدث مجموعة اليساريين والعَلمانيين ومَن شابههم من حملة الشعارات الفارغة التى ثبت أنها لا تُسمن ولا تُغنى من جوع ؟

وإذا أراد هؤلاء أن يعرفوا القوة التى يضعها الإسلام فى المسلم ، فلينظروا

فى نتائج الشهادات الجامعية وليسألوا أنفسهم بعد هذا : لمن الريادة والسبق والأولوية ؟ ؟ وستكون الإجابة الصادقة : للشباب الواعى الملتزم ، لا لشباب الديسكو ، ولا لشباب المعسكرات المختلطة ، ولا لشباب المراهقات السياسية، وسيكون السؤال التالى ، ولمن يكون المستقبل بعد التخرج ؟؟ وتكون الإجابة الصادقة : للنوع الأول بلا شك لأنه النوع الذى أسس نفسه على التقوى والصلاح والعلم . . إذن فمَن هو المتقدم ومَن المتخلف ؟؟ المتقدم - أو إن شئت التقدمى . هو الشاب الملتزم بدينه ، القوى بعلمه ، السباق بخلقه الإسلامى القويم ، وهى الشابة التى تربت على الحجاب والعفة ، التى تعلمت فأتقنت العلم ، وعملت فأتقنت العمل كما أمرها بذلك دينها الحنيف . . أما المتخلف فهو ذلك الشاب الخليع ، الراقص بالليل ، النائم بالنهار . . والشابة التى أجهدها السهر فى هراء فذهبت إلى العمل كسولةً لا تستطيع أن تُنجز عملاً .

نعم . . إن العمل هو مقياس التقدم والتخلف ، والإسلام لا تعادله قوة فى دفع الإنسان إلى العمل المتقن الجيد ، أليست هذه القوة هى التى نحتاج إليها اليوم أشد الاحتياج حتى نصبح أقوى من دول الشرق والغرب على السواء . . ؟

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يأتى الرد على هذه الأفكار الهدَّامة من «فلفريد هوفمان » سفير ألمانيا فى المغرب الذى اعتنق الإسلام عن عقيدة وإيمان وأصدر كتاباً بعنوان « الإسلام كبديل » حاول فيه أن يشرح للألمان والأجانب ما يجهلونه عن ديننا الحنيف . . ويفند الأحكام المغلوطة التى ما زال الغرب ومريدوه يحملونها ضد الإسلام .

لقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة لأن السفير تجرأ وشرح مفهوم المساواة بين الرجل والمرأة فى الإسلام على حقيقته . . ولم يدس المغالطات التى دأب الغرب على أن يُلصقها بالإسلام والمسلمين وكانت بداية هذه الضجة توجيه وزارة الخارجية الألمانية اللوم إلى السفير لأنه - حسب رأيها - خرج عن مهام وظيفته .

وشنت نائبة ألمانية من الحزب الديمقراطى الاشتراكى المعارض حملة مسعورة على السفير المسلم بدعوى تجاوزه حقوق المرأة فى الدستور الألمانى ، وطالبت بسحبه من منصبه فى الرباط .

ويقع كتاب السفير الألمانى « الإسلام كبديل » فى (٢٢٠ صفحة) ، ويتناول قضايا « الإسلام والغرب » و« مفهوم الإيمان فى الإسلام » و« الديانة المسيحية من وجهة نظر الإسلام » و « مفهوم الفلسفة والقدرية فى الإسلام » و « الإسلام كدولة » و« الإسلام والنظام الاقتصادى الحر وحماية البيئة وحقوق الإنسان » و« الجهاد » و« الحقوق الدولية » . . و« المرأة فى المجتمع الإسلامى » .

وفى هذا الفصل الأخير شرح السفير « هوفمان » مدعماً رأيه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التكريم الذى كرّسه الإسلام للمرأة ودورها الكبير فى المجتمع الإسلامى ، والزواج والميراث والحجاب وتعدد الزوجات والعدل بين النساء وأحكام الطلاق كضرورة اجتماعية .

وأكد السفير الألمانى فى كتابه أن الحرية الجنسية تدمر المجتمع . . وأن الإسلام يتمسك بمؤسسة الزواج ويبنيها على أساس توزيع الأعباء بين الرجل والمرأة بصورة موضوعية ، مع احترام كل منهما للفروق الطبيعية القائمة بينهما . . بصرف النظر عما إذا كان ذلك يتلاءم مع « الموضة » أم لا .

* وهكذا فهم « هوفمان » من الإسلام ما عجز كثيرون ممن يتحدثون لغة القرآن عن فهمه . . وصدق قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (١) . . وحفظ الذكر هنا ليس حفظ المصحف الشريف فقط ولكن حفظ معانيه وفهم رسالته على الوجه الصحيح .

* *

(١) الحجر : ٩

● أكليشيهات جاهزة :

وفى إطار موجة الفكر العشوائى التى يُغرقنا بها العَلمانيون من أدعياء التنوير صباح مساء . . انتشرت بعض المفاهيم المغلوطة التى صارت تُردَّد عن عمد وكأنها « أكليشيهات جاهزة » لا تحتاج إلى تفكير ما دام الهدف منها تشويه أى فكر إسلامى يحاول أن يخاطب العقل ، ويستخدم الحُجَّة والمنطق.

فهم يُروِّجون - مثلا - أن دعاة الإسلام يحاربون السياحة والفن ، ويخاصمون العقل والتنمية والاستثمار وحقوق الإنسان ، وينشرون الأصولية والتعصب ويعتدون على الوحدة الوطنية . . ويعلم الله أن هذه كلها اتهامات باطلة لا تصمد أمام الحقيقة .

إن تناول دعاة الإسلام لقضية الفن ليس من أجل الإلغاء . . وإنما من أجل الإصلاح والتقويم . . هم لا يقولون إن الفن حرام . . وإنما يقولون إن الفن حلاله حلال وحرامه حرام . . فما كان منه يدعو إلى القيم السامية ، ويربى الضمائر على الفضيلة ، وينشط العقل ، ويقدم التسلية الرفيعة فهو حلال لا غبار عليه ، وأما ما كان منه يخاطب الغريزة ، ويعمل على نشر الرذيلة ، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، وتغييب العقل والوعى . . فهو حرام وألف حرام .

نحن نريد فناً يُعبِّر عنا . . يُعبِّر عن قيمنا وأخلاقنا وتراثنا ، فناً نرى فيه مستقبلنا ، ونوقظ به قدراتنا الخاملة . . نريد فناً واعياً يحيينا . . لا فناً هابطاً يميتنا .

وربما يتعلق بهذه النقطة أننا نرفض عمليات تأليه الفنانين ، وتركيز الأضواء عليهم فى كل مناسبة . . وتقديمهم فى وسائل الإعلام ، وخاصة الإذاعة والتليفزيون على أنهم هم وحدهم نجوم المجتمع ، وقدوته . . لا . . نحن نريد أن يكون معهم ، بل يسبقهم نجوم العمل والإنتاج ، نجوم السياسة

والفكر ، نجوم العلم والدين . . فمصر زاخرة والحمد لله بالنجوم والشموس فى كل المجالات ، وليس نجوم الفن والكرة فقط .

* *

والسياحة فى مصر أصبحت مورداً أساسياً من موارد الدخل القومى بعد أن نضبت موارد كثيرة كنا نتميز بها عن كل بلاد العالم . . ولكن التفكير السياحى عندنا لا بد أن يكون تفكيراً واعياً قادراً على العطاء ، يبنى ولا يهدم ، يُعَمِّر ولا يُخَرِّب .

لا بد أن يميز تفكيرنا بين السياحة والرذيلة ، بين ما نحتاجه وينفعنا ، وما لا نحتاجه ويضرنا . . فالآثار القديمة ، والمناظر الطبيعية الجميلة ، والأحياء الشعبية ذات الطبيعة الخاصة وغير ذلك مما يعلمه خبراء السياحة . . يمثل عناصر جذب للسائحين الأجانب الذين يأتون إلينا ليروا ما ليس متاحاً أمامهم فى بلادهم ، وهو فى نفس الوقت لا يضرنا شيئاً . . ولكن إذا كانت السياحة ستصبح عامل هدم وتخريب فى بلادنا فهذا ما لا نرضاه ولا يرضاه عاقل على الإطلاق .

مَن يقول : إن السياحة تستلزم إنشاء ملاهٍ ليلية تُستباح فيها الحُرُمات تحت سمعنا وبصرنا ، ونحن فى دولة إسلامية يعرف رجالها الحلال والحرام ؟؟

ومَن يقول : إن السياحة تستلزم إقامة صالات للقمار ولرقصات الديسكو ، وغيرها من الممارسات الشاذة الغريبة عنا ، والتى تثبت أنها تأخذ منا أكثر مما تعطينا ؟؟

نعم . . هى تأخذ منا . . من أخلاقياتنا ، وعقيدتنا ، ورجالنا ونسائنا . . ولا تعطينا إلا كوارث وأزمات ومعيشة ضنكاً . . وينبغى علينا ، وسط ضجيج السياحة ، ألا ننسى الموارد التى دمرناها بأيدينا ، والتى يجب أن يكون

الاهتمام بتنميتها مقدماً على الاهتمام بتنمية السياحة ، ومن هذه الموارد بالطبع الزراعة والصناعة والتجارة وقبل كل ذلك وبعده ، الإنسان ، المسلم ، المتمسك بتعاليم ربه ، القادر بهذه التعاليم أن يواجه كل الأزمات ويتغلب عليها .

* *

والأصولية فى فهمنا الإسلامى غير التعصب .. والتعصب غير التطرف .. والتطرف غير الإرهاب .. ومع هذا فإن وسائل الإعلام الغربية نجحت - للأسف - فى أن تربط بين هذه المسميات دون أى تمييز ، وأن تخلع عليها مدلولاً سلبياً واحداً .. جعلت منه مرادفاً للإسلام .. وساعدها على ذلك - للأسف - عاملان أساسيان :

* العامل الأول يتعلق بالتصرفات والممارسات غير المسئولة وغير الواعية من بعض ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وهؤلاء يجتهدون باقوالهم وأفعالهم فى تشويه صورة الإسلام وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً . إنهم يقتلون .. ويخطفون الرهائن والطائرات ، ويعتدون على السياح ، ويُطلقون البيانات العنترية ضد كل من يخالفهم فى الرأى .. ثم يعلقون كل ذلك فى رقبة الإسلام .

* والعامل الثانى يتعلق بالتصرفات والممارسات التى أدمنها المنافقون للغرب على حساب دينهم وعقيدتهم .. أولئك الذين بهرتهم بضاعة الاستشراق الأوروبى الأمريكى ، فلم يحتفظوا أمامها بتوازنهم ، حتى أصبحوا أسرى لكل ما يأتينا من الشمال .

وهذان العاملان يثيران لغطاً واضطراباً شديدين فى مجتمعاتنا الإسلامية .. وهما يقفان على طرفى نقيض .. لكن - والحمد لله - بينهما بحر واسع من الجماهير العريضة المؤمنة السوية .. التى تعرف دينها بغير تحزلق ولا تنطع .. وهذه الجماهير هى التى تحاول أن تلعب عليها وسائل الإعلام الغربى بأدوات وفنون حديثة وخطيرة لزحزحتها عن الثوابت الراسخة التى تتمسك بها .

لقد صنع الإعلام الغربى « أكليشيهات » أو « أنماط جاهزة » من التعبيرات والمسميات يحاول بها أن يغير مفاهيمنا وقيمنا ويربطنا بمفاهيمه وقيمه .

فالأصولية عندنا تعبير إيجابى .. يعنى العودة لمناهج الإسلام الأولى ، وعلماؤنا يعرفون « علم الأصول » .. بل إن التعبير الشعبى « ابن الأصول » استلهام وجدانى له مغزاه من كلمة « أصل » .

والتعصب عندنا ليس شراً كله .. بل إننا مأمورون بأن نتعصب لحقوقنا وأرضنا ولا نُفَرِّط فيها .. والتعصب لا يكون ممقوتاً إلا إذا تعلق بالرأى .. أما إذا ارتبط بالشرف والحق والوطن والدين .. فيكون التزاماً ..

والتطرف .. موقف عقلى .. يرتبط بالرأى .. والرأى الآخر .. ومن الصعب تحديد مَن المتطرف إلا إذا اتفقنا على نقطة « مركز » يكون الاقتراب أو التطرف قياساً عليها .

أما الإرهاب .. فهذا هو الخسران المبين .. وهو أُس البلاء كله .. لأنه هو الذى يعطى العدو مبرراً لتشويه كل ما هو جميل عندنا .

لقد أمرنا الله سبحانه أن نرهب الأعداء بإعداد أنفسنا .. أو بقتالهم فى ميدان الحرب .. وليس بالاغتيال والخطف .. شتان ما بين هذا وذاك .

* *

والإسلام لا يحارب الثراء المشروع .. الذى يأتى عن طريق العمل ، أو التجارة الحلال ، أو الاستثمار الصادق لرأس المال .. أو غير ذلك .. لكنه يحارب كنز الأموال .. وحجبها عن دورة الحياة ، حتى لا يستفيد منها الناس ، ولا تساهم فى حركة رقى المجتمع وتقدمه .

والذين يُعذَّبون يوم الحساب ليسوا أولئك الأثرياء الذين ينفقون مما رزقهم الله ، ويستخدمون أموالهم فيما يفيد الناس ، فيعطون فرصاً أكبر للعمل ، ويفتحون بيوتاً أغلقها العوز ، لكنهم الأثرياء الذين يكنزون الذهب والفضة .. ﴿ **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بهَا جبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾[1] .

---

(١) التوبة : ٣٥

ولا ينفصل كنز المال عن « كنز الشقق السكنية » .. وتركها خالية حتى يكبر الأبناء ، أو لضمان ارتفاع أسعارها .. بينما الناس لا تجد غرفة تسكن فيها .. أو « كنز السلع » حتى تختفى تماماً من الأسواق وتشتعل أسعارها .. أو كنز « التاكسى الأجرة » عن نقل الجمهور الذى يقف فى عز الحر لا يجد وسيلة مواصلات ، والتاكسى يمر خالياً من أمامه يستفز مشاعره .

هذه كلها صور احتكارية بغيضة يرفضها الإسلام .. لأنها تثير الكراهية فى قلوب الناس .

نحن فى حاجة إلى كل ثرى .. لا ليكنز ماله ، ولا ليُسرف فى الانفاق على « الأبهة » فى الملبس والمأكل والمسكن إلى حد التبذير والسفه .. ولكن ليقيم مصنعاً يستوعب العاطلين من الأيدى العاملة ، أو ليستصلح أرضاً جديدة ليعمل فيها إخوانه ممن لا يجدون عملاً ، فيوفرون لنا لقمة العيش التى نستوردها من الخارج بالعملات السهلة والصعبة ، أو ليبنى عمارة سكنية فيؤجرها لمن لم يجدوا مأوى ويريدوا أن يفتحوا بيوتاً كسائر البشر .

ويبقى على الحكومة أن توفر لهؤلاء الأثرياء المناخ العام الذى يساعدهم على الاستثمار ، ويطمئنهم على أموالهم ، فلا تُصادر ولا تُفَرض عليها الحراسة ، ويحررهم من أغلال الروتين الخانق ، كما عليها أن تتوسع فى إنشاء مراكز التدريب للعاطلين حتى ترتفع كفاءتهم ، ويصبحون مؤهلين بصورة ملائمة لاحتياجات المشروعات الجديدة .

إن العودة إلى المفهوم الإسلامى الصحيح لقضية الغنى والفقر تجنبنا كثيراً من المهالك التى وقعنا فيها حين خُدِعنا بنظريات الغرب والشرق .. فالإسلام يُعلِّمنا ألا نكره الأثرياء أو نحقد عَليهم لأنهم أغنى منا .. كما أمر هؤلاء الأثرياء ألا يتعالوا على الناس ، وأن يبذلوا من أموالهم زكاة وصدقات حتى تتآلف القلوب ، وتسود المحبة ، وينتشر « الأمن » بين الناس ، أو ما نسميه بلغة عصرنا « السلام الاجتماعى » .

* *

وننتقل إلى مفهوم « حقوق الإنسان » الذى يحاول الغرب أن يجعل منه وسيلة عندما يريد أن يتدخل فى الشئون الداخلية لشعب ما إذا غضب عليه .

ويلاحظ هنا أننا لسنا ضد حقوق الإنسان على إطلاقها . . لا . . إنما نحن ضد المفهوم الغربى لهذه الحقوق فقط . . ذلك المفهوم الذى جعل « الشذوذ الجنسى » و« المعاشرة من غير زواج » ضمن هذه الحقوق . . بينما جعل تعدد الزوجات اعتداءً صارخاً ضد « حقوق الإنسان » .

والغرب يقف بحزم ضد أى صوت يدعو إلى مخالفة التعريف الذى وضعه لمفهوم حقوق الإنسان . . وهو يعلم تماماً أن اختلاف السمات الدينية والاجتماعية والثقافية يجعل لكل بيئة تعريفاً خاصاً بها . . وإن كانت هذه النسبية الثقافية لا تعنى التغاضى عن القمع والتعذيب والاغتصاب والعنصرية والاعتقال التعسفى والتطهير العِرْقى وإخفاء الأشخاص لدوافع سياسية . . فكل ذلك لا تسمح به أى عقيدة أو ثقافة تحترم الإنسانية .

إن قضية الاختلاف والتمايز التى نشير إليها لا تتعلق بهذه الجرائم التى يرفضها ديننا الحنيف رفضاً تاماً . . ولا يسمح بتبريرها مهما كانت الأسباب والدوافع ، إنما القضية تتعلق - حقيقة - بجوانب أخرى مريرة أثبتت التجربة أن الغرب لا يبذل أدنى جهد لكى يتفهمها . . ومن هذه الجوانب ما يلى :

* الشريعة الإسلامية التى نقدسها ونلتزم بها امتثالاً لأمر الله عَزَّ وجَلَّ تفرض علينا - كمسلمين - تطبيق حدود السرقة والزنا والقِصاص والحرابة وشرب الخمر والرِدَّة ، ونحن نتعبد إلى الله ونتقرب إليه بهذه الحدود حتى لا تشيع الفاحشة فى مجتمعنا ، وينتشر فيه التفكك والانحلال والعياذ بالله ، لكن الدول الغربية ترى فى هذه الحدود وحشية وقسوة وتتهمنا - فى ذلك - بانتهاك حقوق الإنسان ، فما الحل إذن ؟ . . وما الفيصل الذى يحكم بيننا وبينهم ؟

* الإسلام يملى علينا منع شرب الخمر ، أو تداوله فى الأسواق ، والغرب يرى غير ذلك ، فهو قد جعل الخمر من الحريات الشخصية ، ويريد منا أن نفعل مثلما فعل ، ونحن لا نستطيع ، لأننا إن فعلنا ذلك أطعناه وعصينا خالقنا ، وبالتالى تكون تهمتنا جاهزة ، وهى انتهاك الحرية الشخصية والاعتداء على حقوق الإنسان . . فما الحل إذن ؟

* الإسلام فرض على المرأة المسلمة الالتزام بالحجاب ، وأمرها بألا تُبدى زينتها أمام غير محارمها ، والغرب لا يعجبه منا ذلك ، فما الحل إذن ؟

* الإسلام أمرنا ألا نتطاول على الأنبياء والرسل ، وهم يسبون الأنبياء والرسل بدعوى الحرية ، وعندما نرفض مجاراتهم فى هذا الباطل يقولون إننا متخلفون نفرض الرقابة على حرية الفكر والإبداع وحقوق الإنسان ، فما الحل إذن ؟

* حرَّم الإسلام البغاء ، وهم يُصرِّحون به ، ويعتبرونه حرية شخصية تنبع من حقوق الإنسان ، فما الحل إذن ؟ .

وهكذا . . أستطيع أن أسرد عشرات الأمثلة مما أعتبره خطوطاً فاصلة بيننا وبينهم ، تضعها مبادىء الدين والقيم ، وتصونها العادات والتقاليد والأخلاق العامة ، وكلها تؤكد ضرورة الاعتراف باختلاف المعايير الخاصة بحقوق الإنسان عندنا وعندهم ، ولو لم يتم هذا الاعتراف من جانب الغرب فإن الفجوة ستظل قائمة ، ولن يحدث التعارف المنشود والتعاون الذى نتطلع إليه.

لقد كرَّم الله الإنسان من حيث هو إنسان فوضع له مبادىء الشريعة التى تصون له دينه وعقله ودمه وعرضه وماله ، وكرَّم الله المرأة فوضع لها من القواعد ما يصون كرامتها وعفتها ولا يجعل منها سلعة تجارية أمام أعين الرجال ، وكرَّم المجتمع الإنسانى كله فوضع له من القواعد والنُظم ما يحفظ عليه استقراره وأمنه ، فهل نطمع فى أن ينظر الغرب بعين منصفة لقيمنا الإسلامية ويتخلى - ولو لمرة واحدة - عن نظرته المغرورة لذاته وقيمه ؟

* *

وحفظ الإسلام حقوق المرأة - وجعل لها ذمة مالية منفصلة عن الرجل .. سواء أكان هذا الرجل هو والدها أو أخوها أو ابنها أو زوجها .. وساوى بينها وبين الرجل .. ﴿ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (١) .

أما ما هو من كون الرجال قوّامين على النساء ، فلطبيعة التكوين ، ولطبيعة الوظيفة الحياتية ، بالإضافة إلى : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٢) .. والتفضيل هنا ليس رهناً بالتكوين المادى ، أو الجنسى ، بل بالتكوين النفسى والعقلى الذى يُمكّن من القيام بواجبات القوامة .

وأما كون حظ المرأة نصف حظ الرجل فى الميراث ، فبسبب ما أنفقوا من أموالهم ، أى بسبب التبعات المادية التى أوجبها الشرع على الرجل ، وأعفى منها المرأة ، حتى ولو كانت ذات مال .

والله - سبحانه وتعالى - حين أخبر بأنه كرَّم بنى آدم لم يُفرِّق بين الذكر والأنثى ، ولا بين المؤمن والكافر ، فالجميع يتمتعون بكل النعم السماوية فى « التكوين » ، وأُوتوا جميعاً حق الاختيار بين « النجدين » ، فكل نفس أُلهمت فجورها وتقواها ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (٣) .. هكذا كان التعبير القرآنى عن المسئولية المتساوية بالنسبة لجميع أبناء آدم وحواء دون تمييز .. ولا فضل إلا بالتقوى .

* *

ثم نأتى إلى من يتحدثون بمفاهيم مغلوطة عن الوحدة الوطنية .. ويهاجمون الإسلام دائماً فى نقطتين هما : اعتباره النصارى من أهل الذمَّة .. وفرضية الجزية .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ (٢) النساء : ٣٤ (٣) الليل : ٥ - ١٠

وللرد على هؤلاء . . دعونا أولاً نجيب عن هذا السؤال :

● مَن هم أهل الذِمَّة ؟ . . وما هى الجزية ؟

● ● الذِمَّة كلمة معناها : العهد والضمان والأمان . . وقد سُمِّى غير المسلمين الذين يعيشون فى الدولة الإسلامية بأهل الذِمَّة لأن لهم عهد الله ، وعهد رسوله ، وعهد جماعة المسلمين : أن يعيشوا فى حماية الإسلام وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين ، فهم فى أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذِمَّة .

وهذه الذِمَّة تعطى أهلها من غير المسلمين ما يشبه فى عصرنا الجنسية السياسية التى تعطيها الدولة لرعاياها . . فيكتسبون بذلك حقوق المواطنة ، ويلتزمون بواجباتها . . وتصبح القاعدة فى التعامل معهم بأن « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، فهم آمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وشعائرهم ومعابدهم بمثل ما يأمن المسلمون . . ولهم مطلق الحرية فى تطبيق مبادىء دينهم عملاً بقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾ (١)

● ● أما الجزية . . فهى بدل عن الحماية العسكرية التى تقوم بها الدولة الإسلامية لأهل ذِمَّتها من غير المسلمين ، فإذا لم تستطع الدولة أن تقوم بهذه الحماية لم يعد لها حق فى الجزية .

وقد حدث أن رد أبو عبيدة بن الجراح ما أخذه جزية من أهل بعض مناطق الشام لما سمع بتجمع الروم ورأى عدم قدرته على الدفاع عنهم .

ويقول علماء الأُصول : إن الجزية تسقط عن أهل الذِمَّة إذا اشتركوا مع المسلمين فى القتال والدفاع عن دار الإسلام . . ومن هنا فنحن نقول إن الجزية

---

(١) المائدة : ٤٧

لا تنطبق على الأقباط لأنهم جزء أصيل من نسيج حياتنا وهم شركاؤنا فى الوطن والتجارة والزراعة والصناعة والجيش ، ومنهم الجنود والضباط والقادة .

● ● ويحكى التاريخ أن بعض نصاري تغلب فضّلوا دفع الزكاة على الجزية ، رغم أن مقدار الزكاة أكبر . . وعلى الطرف الآخر أفتى بعض العلماء بأن أهل الذمّة الذين يحاربون مع المسلمين يأخذون حقهم كاملاً من الغنائم . . وحقهم هذا أكبر من حق المسلمين حيث لا يُخصم منه « الخُمس » المخصص للإنفاق على المسلمين .

* *

وعلى مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ظل المسلمون مضرب المثل فى احترام حق أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم امتثالاً لأوامر ربهم واتباعاً لسُنَّة نبيهم صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار رضوان الله عليهم . . وقد حفظ الإسلام الديانات الأخرى فى دياره ، وتوافرت لأصحابها الذين يعيشون فى بلاد المسلمين ، ولممتلكاتهم ، كل سُبُل الحماية والرعاية تحت شعار الإسلام الخالد : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . . ووصل أصحاب الديانات الأخرى إلى أعلى المناصب فى دولة الإسلام .

وفى مصر - على وجه الخصوص - ضرب المسلمون أروع المُثُل فى رعاية حقوق مواطنيهم من الأقباط ، وكان الأقباط أيضاً على مستوى المسئولية فى الحفاظ على الوحدة الوطنية لشعب مصر فى ظل دولة الإسلام التى لم تفاضل أبداً بين المواطنين أبناء الشعب الواحد على أساس الدين أو الجنس أو اللون .

وظلت هذه السمة الحضارية هي أخص سمات الشعب المصرى حتى فى أحلك فترات تاريخه ، وظلت الوحدة الوطنية هى درعنا الواقى ، الصامد أمام تيّارات كثيرة عاتية ، يصونها المسلمون والأقباط بأرواحهم ، ويذودون عنها بدمائهم .

لهذا كله .. كان غريباً على مصر تلك المشاهد المأساوية التى شهدتها فى فترات متقطعة على مدى السنوات العشرين الماضية والتى سمعنا خلالها - ربما للمرة الأولى فى تاريخنا - مصطلح الفتنة الطائفية .

والذى يجب أن نتفق عليه معاً ولا ننكره هو أن هناك ممارسات خاطئة فى الجانبين - الإسلامى والقبطى - يقوم بها أولئك الذين لا يُحسنون تقدير الأمور حق قدرها ، ولا يدركون قيمة الوحدة التى ميَّزت وطننا الغالى منذ زمن بعيد .

ولعل أولى الناس بالحفاظ على الوحدة الوطنية ورعايتها هم الذين يحملون شرف الدعوة إلى الله والمناداة بتطبيق شرعه ، والمطالبة بالإصلاح حسب منهجه الذى ارتضاه لعباده .. إن كل سهم يُوجَّه إلى وحدتنا الوطنية يوجَّه فى الحقيقة إلى قلوبهم وأحشائهم .

نحن نتعرض لهجمة صهيونية شرسة تستهدف تمزيق وحدتنا ، ويجب أن نكون على وعى بهذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس .. وأظن أنه لم يعد خافياً على أحد المخطط الصهيونى المعلن لإشعال نار الفتنة بين المسلمين والأقباط من أجل تقسيم مصر القوية بوحدتها إلى دولتين ، واحدة منها للمسلمين والأخرى للأقباط .

هل يرضى أحد بهذا ؟؟

لا واللهِ .. لا نرضى بهذا أبداً .. ولن يكون بإذن الله ، وسنقف -مسلمين وأقباطاً - نذود عن وحدتنا الوطنية بكل مرتخص وغال حتى نُسلِّم «كنانة الله » إلى أبنائنا قوية عزيزة كما تسلمناها نحن .

ولكى يتحقق هذا لا بد لنا من أن ندفن الفتنة فى مهدها ، وأن نبحث - بكل جدية ، وبلا خجل ولا خوف - عن أسباب الممارسات الخاطئة - فى الجانبين - كى يتحرك العقلاء الراشدون للقضاء عليها .. أو على الأقل ليُعلنوا أدانتها واستنكارها .

فلا يصح - مثلاً - أن يتصور مسلم أن الكنيسة القبطية يمكن أن تقف فى وجه الدعوة إلى تطبيق الشريعة فى مصر ، ثم يتصرف بهذا الدافع الذى لا نراه صحيحاً . . فليس مُتصوَّراً أن الكنيسة تغضب إذا تديَّن المسلمون ، تماماً مثلما لا يغضب المسلمون إذا تديَّن الأقباط وتمسكوا بدينهم . . والصحيح الذى يجب أن نتمسك به معاً هو أنه إذا تديَّن المسلمون والأقباط فإن مصر ستزداد أمناً ورقياً بإذن الله .

ولا يصح أبداً أن يعتدى مسلم على ممتلكات قبطى بسبب تردد شائعة تقول إن القبطى سيحوِّل قصره إلى مطرانية !!

ولا يصح أيضاً أن يُصدِر طبيب قبطى « مثقف » كتاباً يتضمن قصيدة مطوَّلة يشتم فيها الإسلام والمسلمين صراحة ، ويلصق بهم كل نقيصة ورذيلة ، ويتهمهم بأفظع الاتهامات التى أطلقها الصهاينة والصليبيون .

ولا يليق بمسلم يتسمى بأسماء المسلمين أن يدبج المقالات ويعقد الندوات ، ويملأ الدنيا صراخاً ليستعدى الأقباط على المسلمين . ويفعل كما فعل الخونة على مدى التاريخ ، كل ذلك من أجل الحصول على أصوات الناخبين الأقباط ، فلما أركسه الله راح يوزع بذاءاته المتعفنة على الصحف الصفراء لتنشرها له ، وهى لا تدرى أنها بذلك تضرب الوحدة الوطنية فى الصميم .

لا شك أن هذه بعض من صور الممارسات الخاطئة فى مسيرة وحدتنا الوطنية ، ويجب على العقلاء الراشدين من المسلمين والأقباط أن يتصدوا لها بكل شجاعة ، وأن يضطلعوا بدورهم كى يقضوا عليها ، حتى تظل مصر وطناً للأمن والأمان كما أرادها الله سبحانه وتعالى ، وكما يريدها المخلصون من أبنائها .

* *

● المواجهة السافرة

أصبحت المواجهة سافرة بين أصحاب الرؤية الإسلامية وبين أُولئك الذين يسيرون فى فلك الغرب ويتبنون قيمه وأخلاقه . . إلا قيمة العمل . . لأنهم لا يعملون ، وإنما يقولون . . وغالباً يقولون ما لا يفعلون .

ثم أصبحت المواجهة سافرة أكثر بين هؤلاء المستغربين ، أدعياء التنوير ، وبين علماء الأزهر . . يوجهون السهام على المكشوف إلى الأزهر ورجاله ، وإلى أحاديثهم في الإذاعة والتليفزيون والصحافة القومية والحزبية بدعوى أن هذه الأحاديث تُزكي الإرهاب وتشجعه في غفلة من أجهزة الدولة .

ينقل الأستاذ عبد الستار الطويلة في العدد (١٦٤٠) من مجلة « صباح الخير » جانباً مما دار في لقاء الرئيس مبارك بالإعلاميين [١] . فيقول :

« . . وأثار كل من أحمد بهاء الدين والدكتور يوسف إدريس ما سماه «بالفَرْشَة » التي تقوم بها بعض أجهزة الإعلام للتيار الإرهابي عندما يتحدث بعض رجال الدين والكُتَّاب بنفس اللغة التي يتحدث بها أصحاب مبادىء تكفير المجتمع ، ومحاولتهم إرهاب حرية الفكر والمستنيرين من المفكرين المسلمين ، وضرب كل منهما أمثلة محددة بالأسماء عما يُكتب ويُنشر ، وطالبا بعمل خطة جديدة للإعلام تعتمد على التفكير الإسلامي المستنير والدعوة للحوار ، وحرية الفكر والرأي على شاشة التليفزيون وميكرفونات الإذاعة والصحافة القومية ذاتها » .

وربما يكون الأستاذ أحمد بهاء الدين قد قصد هذا المعنى من قبل حين كتب في آخر فقرة من مقاله الأسبوعي « يوميات » بالأهرام في (١٤ مايو ١٩٨٧) يقول : « . . وهناك فكر عام منشور ومذاع يؤدي بشكل غير مباشر إلى إزكاء فلسفة العنف » .

ومَن يدقق في هذا الكلام - ومثله كثير لأقلام أقل شهرة وأقل تأثيراً - يُلاحظ أن المستهدَف هنا ليسوا أولئك الموصوفين دائماً بالتطرف ، ولا المتهمين بالإرهاب ، ولكن المستهدَف هم مشايخ الأزهر وما يسمونهم برجال الدين ، والكُتَّاب الذين كانوا يوصفون في الماضي بالاعتدال .

ولقد حاولتُ أن أستوضح من بعض هؤلاء المتصدين للحركة الإسلامية عن

---

(١) يونيه ١٩٨٧

طبيعة العلاقة التى يتخيلونها بين أحاديث المشايخ وبين تشجيع العنف والإرهاب فقال قائل منهم : « إنك لو تابعت أحاديث المشايخ فى الإذاعة والتليفزيون وفى الصفحات الدينية بالصحف القومية والحزبية ستجدهم يتحدثون نفس اللغة التى يتحدث بها الإرهابيون المتطرفون ، ستجدهم يتحدثون عن تحريم الربا وتحريم تبرج المرأة ، وتميز أُمَّة محمد (صلى الله عليه وسلم) وفرضية الجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك من المقولات التى تُلهب حماس الشباب ، وتدفع إلى « تدمير » الوحدة الوطنية ، فضلاً عن أنها تختلف فى منطلقاتها عن المنطلقات التى تتحدث بها الدولة وربما تصطدم بها فى أحيان كثيرة » .

والحقيقة التى لا يدركها هؤلاء . أو لعلهم يدركونها ولكنهم يخشون مواجهتها ، هى أن هؤلاء المشايخ والكُتَّاب الذين يشيرون إليهم لا يستطيعون أن يقولوا غير هذا للناس ، لسبب بسيط جداً هو أن هذا هو جوهر الإسلام ومحوره ، هو عرض واستعراض لقائمة أساسية .. عنوانها « افعل ولا تفعل » ولا يجرؤ أحد ، كائناً مَن كان ، أن يُحلَّ حراماً أو يُحرِّم حلالاً ، مهما تعارض ذلك مع منطلقات الدولة أو منطلقات الدنيا بأسرها .

لقد انتقل دعاة التقدم والتنوير من مرحلة الاشتباك مع الإرهاب أو التطرف إلى الاشتباك مع المشايخ ، وهم فى الحقيقة يشتبكون مع الإسلام نفسه ، مع أساسياته ، وقواعده التى قام عليها .. ومع ذلك فإننا لا نجرؤ أن نُكَفِّرهم ، فالله سبحانه وتعالى وحده أعلم بما فى قلوبهم .

لكننا لا بد أن نشير إلى أن هذا المنزلق الخطير الذى انزلقوا إليه دافعه الأول والأخير - على ما أعتقد - هو الخوف من ظاهرة الصحوة الإسلامية التى تغزو العالم كله ، ومصر فى مقدمة هذا العالَم ، فالمشايخ والكُتَّاب يقولون فى الإذاعة والتليفزيون والصحف منذ زمن بعيد ، بنفس اللغة ، ونفس المصطلحات ، ولكن الجديد فى الأمر ، الذى جعله أمراً خطيراً ، هو أن الله

سبحانه وتعالى قد مَنَّ على هذه الأُمَّة بأن جعل قطاعات كبيرة ورشيدة من رجالها ونسائها وشبابها وصبيانها ينصتون إلى هذا القول ، يفهمونه ، ويحاولون تطبيقه ، والالتزام به ، لكى يعيشوا دينهم ، ويجعلوا منه أسلوباً لحياتهم امتثالاً لأوامر ربهم . . وهنا بدأت المشكلة . ومن هنا كان الخوف الذى يسيطر - دون داع - على هؤلاء القوم الذين لا يريدون أن يستريحوا أو يُريحوا .

إن التحول من مهاجمة الإرهاب أياً كان انتماؤه - إسلامياً أو غير إسلامى - إلى مهاجمة الفكر الإسلامى نفسه معناه ببساطة أنهم يمارسون ضغوطاً على الدولة لمصادرة هذا الفكر الإسلامى حتى وإن كان صادراً من علماء الإسلام (الرسميين) المعتَرف بهم وبدرجاتهم العلمية وتخصصاتهم ، إنه الإرهاب الفكرى بعينه لكى يظل المسلمون (غير العَلمانيين) مستضعفين فى بلد الإسلام .

* *

إن بعضاً من هؤلاء العَلمانيين قد بلغ مبلغاً غير مسبوق فى مجال تجريح الإسلام والمسلمين . . فهم لم يكتفوا باتهام كل مَن ينادى بتطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر بخيانة الوطن والوحدة الوطنية . . ولكن بلغ بهم السخف إلى حد اتهام الإسلام نفسه وليس المنادين به فقط - بأنه ضد مصلحة الوطن، وضد تقدمه ، وضد الوحدة الوطنية .

قال بعضهم : إن تطبيق الحدود سمة من سمات التخلف ، وقال آخرون : إن الدعوة للتأكيد على أن مصر دولة إسلامية هى مخالفة صريحة للدستور !!

ونحن نقرأ هذا القىء ونتعجب . . أمن أجل سيادة اتجاه معيَّن ، أو من أجل إرهاب اتجاه آخر يصل الأمر ببعضنا إلى هذا الحد ؟

ألأنهم تيقنوا من لهفة شعبنا إلى العودة إلى إسلامه يحدث كل هذا الهراء على مسمع ومرأى من ولاة الأمر ، ورؤساء مؤسساتنا الإسلامية ؟!

إن هذا البعض الجاهل بالدين والسياسة قد اتجه إلى اللعب على آخر ورقة بعد أن أدرك أن كل الأوراق قد احترقت فى يده بفضل وعى الشعب وإيمانه ، ولكن هذه الورقة الأخيرة - الخاسرة بإذن الله تعالى - ورقة إجرامية لأنها - فى الحقيقة - نابعة من روح يائسة مسمومة لا تلتفت لمصلحة الشعب ولا تُبقى على مصلحة الوطن .

والذى يجب أن يدركه هؤلاء هو أن المسيحيين يعلمون جيداً أن أمنهم وأمانهم لا يمكن أن يكونا مع هؤلاء المتأرجحين دائماً بين اليمين واليسار سعياً وراء مصالح الحياة الدنيا . . ولكنهم مع أولئك المستمسكين بأوامر إسلامهم لأنهم هم الأبقى والأكثر إخلاصاً .

ولقد ثارت ثائرة العلمانيين بعدما أوصى علماء الأزهر بمصادرة مجموعة من كتبهم المعروفة باتجاهاتها وأهدافها التخريبية فى المجتمع . . مثل رواية « العراة » وكتاب « قنابل ومصاحف » و« الإسلام السياسى » . . وغير ذلك كثير .

الغريب فى الأمر أن كل الذين صودرت كتبهم - وطبعاً عناوينها تكشف عما فيها من فساد - اتفقوا على أن علماء مجمع البحوث الإسلامية المنوط بهم مراقبة الكتب التى تتحدث عن الإسلام إما متطرفون أصلاً أو يغازلون المتطرفين الذين يظنون أنهم على أبواب الحكم !! .

أرأيتم إرهاباً مثل هذا ؟! . . إنهم يُرهبون العلماء ، ويصفون قرار المصادرة = وهو قرار قانونى ودستورى = بأنه « جريمة تمس حرية التعبير » .

نحن نعرف أن هؤلاء العَلمانيين لا يؤمنون بشىء اسمه حرية التعبير ، وقد أكدت التجارب ذلك . . ولا يؤمنون فى قرارة أنفسهم بالديمقراطية إلا إذا كانت فى صالحهم . . وقد أثبتت التجارب ذلك أيضاً . . ومع هذا فإننا نطرح عليهم سؤالاً محدداً :

* هل حرية التعبير تعنى حرية التخريب فى المجتمع ؟! .. وهل تعنى حرية التعبير انتهاك القيم والمقدّسات فى مجتمع متدين .. وفى دولة إسلامية .. المادة الثانية من دستورها تؤكد أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ؟!

يا أصحاب العقول .. إن الحرية تعنى المسئولية .. والحرية بلا مسئولية فوضى واضطراب وقلاقل .. وحرية الفكر لا تعنى حرية الكفر والتخريب .

لماذا قامت الدنيا فى بريطانيا أيام « تاتشر » ولم تقعد بسبب فيلم « الرغبة الأخيرة » الذى كان يُشوّه صورة السيد المسيح ؟!

يا سادة .. إنكم تلعبون بالنار .. فالتطرف ضد الإسلام .. الذى هو دين هذا البلد وأيديولوچيته وهَويته .. لا بد أن يغذى التطرف على الجانب الآخر ويعطيه المبرر لكى يقوى ويشتد مما يهدد استقرارنا ووحدتنا .. فاتقوا الله فى أنفسكم .. إن لم تتقوه فى بلدكم !!

* *

إن الشريعة الإسلامية لم تواجه على مدى أربعة عشر قرناً مضت ما تواجهه اليوم من الهجوم والتهجم - ليس من أعداء الإسلام فقط - ولكن أيضاً ممن ينتمون إلى الإسلام ويدّعون أنهم من العارفين بالله .

فى الماضى السحيق كان لا يمكن أن ينكر الشريعة إلا كافر أو منافق أو زنديق ، وفى الماضى القريب كان لا ينكر الشريعة ولا ينقص من قدرها إلا كافر بيِّن الكفر أو دهرى (نتشرى - على حد قول الشيخ محمد عبده) أو وجودى أو شيوعى سطحى يرى فى العودة إلى حكم الشريعة عودة إلى الرجعية وعملاء الاستعمار وحكم السلاطين والملوك والمماليك وما إلى ذلك من الفهم المغلوط الساذج الذى اكتوينا بناره حيناً من الدهر سيظل شيئاً مذكوراً .

ورغم كل هذا فقد كانت الأمور إلى هذه المرحلة واضحة جلية محدَّدة المعالم ، تستطيع وأنت فى أى موقع أن ترى الأبيض أبيض ، وأن ترى الأسود أسود .

أما أيامنا هذه فقد اختلطت الألوان ، أصبحنا نقرأ مقالات فى الصحف لكُتَّاب يحملون أسماء المسلمين يهاجمون فيها الشريعة دون استحياء ، ويتهجمون عليها بلا وازع ، وأصبحنا نعرف مجلات ودوريات بعينها مخصصة للهجوم على الشريعة وعلى مَن يتحمس لها ، بحيث أصبح كل مَن يدعو لتطبيق حكم الله فى نظر هذه الدوريات (المعروفة) متاجراً باسم الدين ومتطرفاً فى بلد دينه الرسمى الإسلام .

الأعجب من هذا كله أن هناك من الكُتَّاب مَن لمع اسمه وأُضيفت إليه صفة الإسلامية فأصبح يوصف بأنه الكاتب الإسلامى فلان الفلانى لا لشىء إلا لأنه تخصص فى الهجوم على شريعة الله والانتقاص منها ، والعياذ بالله ، بدعوى التنوير . . وكأن التنوير لن يكون إلا برفض الإسلام وشريعته .

الأمر لا يقتصر على هذا فقط . . بل إن عددا ممن يطلقون على أنفسهم اسم « العارفين بالله » قد أصدروا مجموعة كتب بعنوان « الإسلام دين العقل» . . وروَّعنى فى هذه الكتب أن أرى من المسلمين مَن يعتقد أن تطبيق شرع الله كان مقصوراً على عصر النبى ﷺ وعلى الخلفاء الراشدين من بعده وأنه ليس هناك مَن يستطيع بعد ذلك تطبيق هذا الشرع . . وأن حدود الله التى أمرنا أن نطبقها هى الإخلاص والصدق والحلم والأمانة والوفاء ، وأن الأمر ليس فى حاجة إلى إلزام الحاكم بتطبيق الحدود على الرعية ولكن على كل شخص أن يطبقها بنفسه على نفسه لأن المسئولية فى تطبيق هذه الحدود مسئولية فردية أمام الله .

وإذا كانت هذه الآراء مقصورة على الاعتقاد الشخصى أو الجَماعى المحدود فهذه مصيبة ، أما أن تتعداها بأن تُكتب فى كتب تُعرض فى الأسواق

ليستهلكها البسطاء ، وينقل منها الشانئون والمستفيدون من الكتبة الذين يهاجمون الشريعة بمناسبة وبغير مناسبة فتلك هى مصيبة المصائب .

هل يتصور عاقل أنهم يُفسِّرون فرضية « الحكم بما أنزل الله » على أنها مقصورة على حكم النفس بعمل الصالحات واجتناب الموبقات ؟!

ليس هناك معنى لكل هذا إلا أن الأوراق قد اختلطت ، وأن هناك من السهام ما يُوجَّه إلى كبد الإسلام من أبنائه عن جهل أو سذاجة أو بسوء قصد .. الله أعلم .

* * *

قَوْلٌ على أقوال

● مصر ليست دولة عَلمانية .. ولاصلاح الدين الأيوبى كان عَلمانياً ! !

لسوء الحظ . . انقلب كل الشيوعيين عندنا إلى عَلمانيين ، بعد أن دالت دولتهم . . وها هم أولاء - الآن - يملأون الدنيا ضجيجاً . . فهم المستنيرون، وهم الوطنيون ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، ومنافقون ، فتاريخهم كله ملطخ بالدماء ، وهم الذين زرعوا بذور الإرهاب والعمل السرى تحت الأرض ، فضلاً عن عمليات التهييج والإثارة .

وقد أدرك كبار العَلمانيين أن العَلمانية ما زالت مفهوماً سلبياً ومرفوضاً من جانب الرأى العام المصرى . . لذلك يسعون بكل ما أوتوا من حيل وألاعيب ونفوذ أن « يُجمِّلوا » هذا الوجه القبيح ، ويُقربوه إلى الناس ، لعلهم يتقبلونه . . وفى سبيل ذلك قد يأخذهم الشطط بعيداً عن الحقيقة والواقع .

ومن أمثلة عمليات تجميل العَلمانية هذه . . ما كتبه الأستاذ محمد عودة فى مجلة « روزاليوسف » تحت عنوان « العَلمانية المفترى عليها » [١] . . وقد تضمن هذا المقال عدة أخطاء علمية وتاريخية فظيعة .

وبالرغم من أن الأستاذ محمد عودة يتفق معنا فى أن العَلمانية « نشأت فى الغرب المسيحى نتيجة الصراع الدامى بين البابوات والملوك ، وأنها لم تُطرح كقضية فى الإسلام ولم يكن لها مبرر أو أساس ، حيث لم يكن فى الإسلام كنيسة أو بابوات ، ولم ينشب صراع بين المسجد والسلطان . . ينتهى إلى الفصل بين سلطات الاثنين » . . أقول : وبالرغم من هذا الاتفاق إلا أنه يناقض نفسه ويناقض التاريخ والحقيقة والواقع حين يؤكد أن العَلمانية كانت

(١) روز اليوسف العدد ٣٣٤٣ فى ٦ يوليو ١٩٩٢

وراء انتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين ، وأن العَلمانية كانت سلاحاً ماضياً فى الحفاظ على القومية والدين معاً ، وتصدياً للغرب الاستعمارى وهزيمته بنفس أساليبه وأسلحته . . كما كانت الأداة المثلى لحفظ وحدة الأُمة : الأغلبية وكل الأقليات والإسلام وكل الديانات والعقائد والمذاهب ، وكفالة الحقوق والحريات للجميع على قدم المساواة ، وفى مقدمتها حرية العقيدة وممارسة العبادة .

ثم يحدثنا بزهو عن اختراع جديد أسماه « العَلمانية العربية » التى اختلفت عن عَلمانية الغرب ، دون أن يقول لنا كيف ؟! . . وعن اختراع أكثر غرابة أسماه « العَلمانية المصرية » التى كانت - حسب فهمه - نموذجية فى تطبيقها فلم تمكن الاحتلال الإنجليزى من التفرقة والدس بين المسلم والمسيحى كما فعلت فى الهند وحولّتها إلى مجازر حتى اتجهت الهند الآن إلى العَلمانية بفضل « غاندى » و « نهرو » وأصبحت دولة آمنة خالية من العنف الدينى !!

ما هذا يا أستاذ عودة ؟!

ألهذه الدرجة يمكن أن تُقلَب الحقائق ، وأن تُبدَّل المفاهيم بسهولة ؟!

لمن تكتبون هذا الكلام المغلوط . . يا سادة ؟

هل تتصورون أن أحداً سيصدّق أن صلاح الدين الأيوبى كان عَلمانياً ، وأن العَلمانية انتقلت منه إلى الغرب ، لأن ملك فرنسا الصليبى قال : كم أحسدك يا صلاح الدين . . ليس لديك « بابا » يُؤرّق حياتك ؟

هذا - واللهِ - فهم لم يقل به أحد من الأولّين ولا الآخرين !!

صلاح الدين - يا أستاذ عودة - كان قائداً مسلماً . . لا يعرف إلا الإسلام . . لم تكن قد وصلته بعد مخترعات القومية العربية ، ولا بضاعة « العَلمانية » المستوردة التى تُروّجون لها باسمه .

لم يعرف صلاح الدين الازدواجية بين ما هو دينى وما هو دنيوى ، ولم يعرف السُلْطة الزمنية والسُلْطة الدينية ، وأيضاً لم يكن يحكم بمنطق أنه « ظل الله فى أرضه » !

إن الذى بهر ملوك أوروبا فى صلاح الدين هو دينه الإسلامى ، وقُدرة هذا القائد الشجاع على أن يلتزم بدينه ويطبق أحكامه .. ومن هذه الأحكام - **يأستاذ عودة - أن دولة الإسلام مدنية .. لا سُلْطة فيها لبابا ولا لكنيسة ، وحرية العقيدة والعبادة مكفولة للجميع .**

لم يعرف الإسلام - إطلاقاً - مفهوم الدولة الدينية « الثيوقراطية » التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى ، وكانت سبباً فى تحولها إلى الدولة العلمانية التى لا علاقة فيها للدولة بالدين .. والذى حافظ على الوحدة الوطنية والسلام بين أصحاب الأديان المختلفة فى الدول الإسلامية هو الإسلام نفسه وليس العلمانية العربية أو المصرية .

متى كانت مصر دولة عَلمانية ؟ !

ما هذا الكلام الخطير الذى تُشعلون به الفتنة بين الشباب ؟ !

حاشا لله .. إن مصر ليست مجرد دولة إسلامية .. لا .. بل هى زعيمة العالَم الإسلامى ، وقلبه ، وعقله المفكر ، نيلها مسلم ، هواؤها مسلم ، مدنها وقراها ، حقولها ، كل شبر فيها ينطق بالإسلام .. الإسلام السمح .. العقلانى .. الذى يرفض التطرف كما يرفض التفريط .. والذى يحفظ لغير المسلمين أموالهم ودينهم وأعراضهم وأرواحهم ، بالضبط كما يحفظها للمسلمين .

ولا يخفى عليك - يا أستاذ عودة - أن مصر لم تنتصر فى كل مواجهاتها التاريخية مع الاستعمار البريطانى أو حتى فى حروبها مع إسرائيل إلا حين **تخلصت من الأغلال التى أثقلتها وعادت إلى إسلامها تهتف به : « الله أكبر فوق كيد المعتدى » .**

ومَن يرجع إلى أدبيات زعماء الحركة الوطنية قبل أن نُبتلَى بالشيوعيين وعنتريات المهزومين سيجد أن عرابى والبارودى ومصطفى كامل ومحمد فريد والأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول .. يتحدثون عن مواجهة الاحتلال من

منطلق الجهاد الإسلامى . . وفى هذه الفترة - أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن - كانت هناك فكرة تُطبخ فى الشام اسمها « القَومية العربية » . . فكرة جديدة على أُمتنا الإسلامية تماماً . . جاءت استجابة لمخطط تقسيم هذه الأُمة المترامية الأطراف . . ففي الوقت الذى بدأ دعاة التتريك فى تركيا ينشطون ، ودعاة العودة إلى « الفارسية » فى إيران يعودون للحكم ، كان هناك «نجيب عزُّورى » خريج الكلية الإنجيلية فى بيروت - الجامعة الأمريكية فيما بعد - ينظم أول مؤتمر يدعو إلى القومية العربية فى باريس عام ١٨٧٥ ، وعُرِف هذا المؤتمر باسم المؤتمر العربى الأول وعُرِف « نجيب عزُّورى » باسم صاحب الدعوة للفكر العربى .

ويقول الأستاذ محمد عودة فى مقاله : « لم تكن - يقصد العَلمانية - إلغاءً للدين أو إعلاناً للإلحاد » . . وهذا - للأسف غير صحيح - فالعَلمانية حملت معها تعطيل الدين عن القيام بأى دور فى الحياة ، بل حملت معها « قهر الدين » أحياناً . . فالمسيحية - مثلاً - ترفض الشذوذ الجنسى ولا تُصرِّح بالإجهاض ، وترفض الخطيئة رفضاً باتاً . . ومع هذا نرى فى الدول المسيحية - العَلمانية - قوانين تبيح كل هذا .

وكما قلت . . إذا كانت الشعوب المسيحية يمكن أن تقبل هذه الازدواجية ، فالإسلام لا يمكن أن يتعايش معها . . لأن فى عقيدتنا وشريعتنا ثوابت لا اجتهاد فيها . . الأبيض أبيض . . والأسود أسود .

على أن هناك بعضاً من دول أوروبا نفسها انقلبت فى النصف الثانى من القرن العشرين على مبدأ تعطيل الدين أو إلغائه بدليل انتشار الأحزاب المسيحية فى كثير من دولها للدعوة إلى إحياء مبادىء المسيحية من جديد . . ووصلت بعض هذه الأحزاب إلى الحكم كما حدث فى ألمانيا وإيطاليا .

أما الحديث عن عَلمانية الهند فذو شجون . . لأن هذه العَلمانية التى يتباهى بها الأستاذ محمد عودة لم تمنع الهندوس من ذبح المسلمين فى الشوارع

والمساجد والمنازل ، ولم تمنعهم أيضاً من الاعتداء على مسجد « بابرى » وهدمه بطريقة وحشية . . لإقامة معبد هندوكى بدلاً منه . . ولم تمنعهم من حرمان شعب كشمير المغتصبة من حق تقرير المصير استجابة لقرارات مجلس الأمن الدولى منذ عام ١٩٤٧

هل سمعتَ - يا سيدى - أن المسلمين حاولوا هدم معبد أو كنيسة لإقامة مسجد مكانه ؟ !

ما السبب فى أننا لا نفعل هذا ولا نقره ؟ !

إنه الإسلام . . الذى حفظ الديانات الأخرى فى دياره وضمن لها البقاء .

لا تتحدث - إذن - عن علمانية ، ولا غيره ، وتنبه إلى خطورة أن تتحدث عن الإسلام كما تتحدث عن الهندوسية والكونفوشيوسية والزرادشتية والبوذية .

إن الدين عند الله الإسلام .

والكارثة الكبرى التى يشعر بها الشيوعيون والعَلمانيون ، خاصة كبار السن منهم ، أنهم قد ضيَّعوا أعمارهم هباءً وأفنوا حياتهم فى « التنظير » و« التبشير » و« التثقيف » . . لكنهم - للأسف - لم يجدوا الحصاد الذين انتظروه طويلاً . . فهم فى عزلة عن الجماهير ، ولا يجرؤ واحد منهم أن يجاهر بحقيقة نفسه فى غير المحيط الذى اعتاد عليه .

لقد حاول واحد منهم أن يتحدث عن العَلمانية أمام ناخبيه على استحياء ، وقبل أن يصل به الغرور إلى مداه ، كان جزاؤه الفشل الذريع فى الأنتخابات . . وكانت فضيحته « بجلاجل » ! !

وأود أن أشير إلى نقطة مهمة . . وهى قول الأستاذ عودة أن « الحدود التى تثور حولها الضجة لا تُطبَّق عليها الشريعة فى سنوات القحط والمجاعة ، وحتى تتوفر لكل مواطن ضرورات الحياة » . . وهذه كلمة حق يُراد بها باطل

.. لأننا لسنا الآن فى سنوات قحط ومجاعة ، بل نحن فى زمن المرسيدس والجولف والديش والتليفزيون والفيديو ، وأزعم أن ٩٩ ٪ من شعبنا تتوفر له ضرورات الحياة ولله الحمد .. ومع ذلك فإن القاعدة الشرعية تقول : إن «الضرورة تُقدَّر بقدرها » و « الضرورات تبيح المحظورات » .

إذن .. لو حسنت النيات .. وتوافقت الإرادة .. فنحن فى أنسب وقت .. وأكثر الأزمان احتياجاً لتطبيق الشريعة .. حماية لحاضرنا ومستقبلنا .. وتأكيداً لهويتنا .. حتى لا نضيع بين الأمم .

ليس معنى هذا أننا نطالب بحكم « المشايخ » .. كلا .. لكننا نطالب بالحكم المدنى الذى يُطبِّق شرع الله .. ويستند إلى القوانين الإسلامية الثابتة .

ولا تتصور أن الفقراء هم الذين يعترضون على تطبيق الشريعة .. لا .. لا .. إن هؤلاء الفقراء لا يسرقون ، وإن سرقت قِلَّة ضئيلة جداً منهم فماذا ستسرق ؟ ! على العكس .. إن هؤلاء الفقراء يرون أن خلاصهم فى تطبيق أحكام الشريعة العادلة على اللصوص الكبار .. الذين سرقوا بالملايين .. ونهبوا أموال الشعب .. فى الوقت الذى تسعى فيه الحكومة إلى تدبير دولار من هنا ودولار من هناك للميزانية العامة للدولة والاستثمارات .

هذه حقيقة أردت بها أن أصحح اعتقاداً خاطئاً يردده البعض بحسن نية أو بسوء نية .. وإن كنت فى ريب مما أقول .. فارجع إلى استطلاع الرأى الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى الثمانينات حول رأى الجماهير من المسلمين والأقباط فى تطبيق الشريعة .. وستكتشف الحقيقة .

هدانا الله جميعاً إلى سواء السبيل .

* *

• الشيخ الشعراوى زعيم المتطرفين ! !

طبيعى جداً .. ألا يرضى المتطرفون عن الشيخ الشعراوى .. وأن يعطوه ظهورهم .. لأنه يصدمهم بالعلم الحقيقى ، والبرهان الساطع .. فيهدم حُجَّتهم .. لكن الذى ليس طبيعياً ، ولا مقبولاً .. أن يقر أحد الكتاب العلمانيين بأنه لم يفهم حديث فضيلة الشيخ ، ثم يغدو فيه ويروح ، ويصول ويجول ، ويتعب نفسه كثيراً بالتقديم والتأخير ، والحذف والإضافة ، ليقول فى النهاية إن الشيخ الشعراوى هو زعيم التطرف والمتطرفين !!

ويعلم الله .. ويعلم القاصى والدانى .. أن هذه فرية كبرى .. ودسيسة ماكرة - وإن كانت غير محبوكة - جاء بها هذا الكاتب الذى يتبنى نظرية عجيبة تقول : « إذا أردت أن تصبح كبيراً .. فاضرب فى الكبار » .. وكان حرياً به ما دام لم يفهم حديث الشيخ - كما قال صراحة - أن يسأل .. ويستوضح .. ويستبين .. قبل أن يتجرأ بتلفيق التهم وإلقائها جزافاً .

لقد تحدث فضيلة الشيخ الشعراوى لـ « عقيدتى » [1] .. حديثاً صريحاً واضحاً عن التطرف والإرهاب .. ووضع النقاط على حروف كثيرة يتلاعب بها أولئك الذين ينصبون أنفسهم أمراء ومفتين ، وبديهى أن حديث فضيلة الشيخ يختلف كثيراً - بل يتناقض - مع ما تريده الدبابير الصفراء والحمراء .. المختبئة فى « روزاليوسف » .. تلك التى لم تعد تُفرِّق بين الإسلام الصحيح والتطرف .. والتى يؤلمها جداً أن يلجأ الناس إلى ربهم .. بدلاً من أن يلجأوا إلى « ماركس » و « لينين » !!

قال الشيخ الشعرواى لـ « عقيدتى » رداً على دعاوى المتطرفين :

*** ماذا يستفيد الإسلام من جماعة انتحارية تفتعل الصدام مع الحكومة ؟**

---

(١) صحيفة « عقيدتى » العدد الثانى فى ٨ ديسمبر ١٩٩٢

* السعى للوصول إلى الحكم يجعل الدعوة الإسلامية غير خالصة لوجه الله .

* مسئولية تطبيق الشريعة ليست على الحاكم فقط ، بل على المحكومين أن يطبقوها أولاً . . ثم يطلبوها بعد ذلك من الحاكم .

* نحن لا نطالب الحاكم بأن يحكم بالإسلام دفعة واحدة ولكن بالتدرج وعلى مراحل .

* هل أجبر الحاكم أحداً على شرب الخمر ؟ . . هل قال : تعاملوا بالرشوة ؟ . . بالعكس قانون مكافحة الرشوة عندنا أشد مما ورد فى الإسلام . . وهل قال الحاكم : تهتكوا فى الشارع ؟ !

* كونوا أنتم مسلمين أولاً ، ولا تبشروا ، وانظروا ماذا يحدث . . إن الكثافة الإسلامية فى البلاد لم تأت بفتح إسلامى ، وإنما جاءت بالأسوة السلوكية ، بخُلُق الإسلام .

يا أصحاب العقول . . هل هذا قول زعيم متطرف ؟ ! . . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِباً ﴾ [1] .

نحن على يقين بأن حديث العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ الشعراوى ، أفضل ألف مرة فى مواجهة الإرهاب والتطرف من ألاعيب العَلْمانيين والشيوعيين الذين يزيدون النار اشتعالاً باستفزازهم لمشاعر المسلمين ، وحرصهم على أن يفتوا - كما يفتى صبية التطرف - بما لا يعلمون ، وقد كان الأولى بهم أن يتركوا المهمة لأصحابها .

لقد دفع عدم الفهم بكاتب « روزاليوسف » إلى الكيد للشيخ ، والدس ضده ، والإنسان عدو ما يجهل ، حتى ليخيل إليك - وأنت تقرأ ما كتب [2] - أن قضيته الأولى هى الدعوة لمنع حديث الشيخ الشعراوى فى التليفزيون . . ومن أجل ذلك راوغ . . وفكَّر . . وقدَّر . . ثم نظر . . ثم عبس وبسر . . ثم أدبر واستكبر !!

---

(١) الكهف : ٥

(٢) المقال فى روز اليوسف العدد ٣٣٦٦ بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٩٢

يقول فى بداية مقاله : « يملك الشيخ الشعراوى تأثيراً خطيراً على الجماهير فى مصر ، ومن هنا تأتى أهمية ما يقوله ويذيعه على الناس ، سواء وهو فى حلقة الدرس وحصة الدين التى يقدمها فى التليفزيون أو من خلال أحاديثه الإذاعية والصحفية » . .

ويقول فى وسط المقال : « لكن كيف لرجل مثل الشعراوى يتحدث ليل نهار فى تليفزيون الدولة وصحفها وإذاعاتها . . ومساجدها . . » . .

ويقول فى النهاية : « لكن البعض لا يزال وسيزال مُصِرّاً على أن الرجل ليس كذلك - أى ليس متطرفاً - وهم أحرار . . أحرار فى أنفسهم ، وفى أجهزتهم ، وفى عزبهم ، وفى مؤسساتهم وفى وزاراتهم » !!

هكذا سيطرت فكرة انتقامية على صاحبنا ، وراح يبحث لها عن ديباجة . . وحشو . . حتى تبدو القضية مستقيمة . . لكنه فشل فى مهمته لعدة أسباب منها :

أولاً : لم يتنبه منذ البداية إلى أن مناخ الحرية والديمقراطية الذى نتمتع به يسمح للشيخ الشعراوى ولغيره بأن يطالبوا الحكومة بتطبيق الشريعة بالتدريج . . وبأن ينشأ حوار - جاد وسلمى - لترشيد الشباب المتحمس لدينه . . ولا أقول شباب الجماعات الإرهابية . . فالفرق واضح لكل ذى عينين - إلا المتحذلقين المتغطرسين - بين تيار التدين وتيار الإرهاب . . الأول مرغوب فيه ومطلوب ، والآخر مرفوض .

إن الديمقراطية التى تتسع لأن يلمز صحفى عَلمانى فى « روزاليوسف » وزير الداخلية لأنه من مريدى « السيدة زينب » لا تضيق بأن يعرب الشيخ الشعراوى لـــ « عقيدتى » عن أمله فى أن نعود إلى « المشرِّع » الأعلى ، وليس إلى « مشروع » أعلى كما نقل كاتب « روزاليوسف » ولم يفهم شيئاً مما نقله خطأ . . ويصل به الغرور إلى أقصى مدى حين يسخر ويستهزىء

قائلاً : « إذا كان الشيء الذى نتفق عليه ليس من عملنا وهو من عمل الله . . فهل ننتظر جلوساً أمام الشيخ الشعراوى فى أحد دروسه أن يهبط علينا الحل من سقف الجامع وهى فرصة كى يُصوِّر التليفزيون الحل وهو نازل من السقف » !!

ما كل هذا الحقد ؟ ! ما كل هذا الاستهزاء ؟ !!

﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [1] .

إن الشيخ - يا عبقرى - لا يقصد انتظار « مشروع » ينزل من السماء كما فهمت خطأ . . وبنيت سخريتك على ما فهمت . . لكنه يقصد الاحتكام إلى « مشرِّع » أعلى من الطرفين ؛ الحكومة والجماعات .

بمعنى آخر . . يطلب العودة إلى الشريعة الإسلامية . . وإلى تطبيق بنودها كاملة حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، وهو نفس ما طالب به فضيلة المفتى حين دعا إلى تطبيق حد الحرابة على الإرهابيين وتطبيق حد السرقة على اللصوص.

وأقسم بالله . . إنكم لو أخذتم مقاعدكم الحقيقية من السمع لفهمتم وتعلمتم ، لكنكم - للأسف - تؤثرون الغطرسة والتحذلق ، وتكون النتيجة أنكم لا تفهمون ولا تتعلمون ، ويتكرر الخطأ مرات ومرات !

ثانياً : جاءت محاولة كاتب « روزاليوسف » للوقيعة بين الشيخ الشعراوى وكل من فضيلة شيخ الأزهر والمفتى ساذجة . . ككل ألاعيبهم « الفشنك » . . إن المسكين لم يتصور أن كلاً من علمائنا الأفاضل شكا مر الشكوى من تعدد جهات الفتوى ، ودخول صبية الجماعات فى المجال ليصدروا فتاوى على هواهم . . وهو ما يمثل إهانة كبرى للإسلام والمسلمين عبَّر عنها الشيخ الشعراوى فى حديثه لـ « عقيدتى » . . فأى عيب فى ذلك ؟ !

---

(١) البقرة : ١٥

ثالثاً : كان مما أخذه الكاتب العَلمانى على الشيخ الشعراوى ليثبت به أنه زعيم التطرف قول الشيخ : « واعلموا أن الحكام فى كل الدنيا يتملقون شعوبهم ويحاولون أن يفعلوا ما تحب هذه الشعوب » .. وهذا قول صحيح - والله - مائة فى المائة .. ليس فقط لأن « كلينتون » صورة لشعبه ، وكذلك « چون ميچور » وغيرهما .. ولكن لأنه قد ورد فى الآثار : « كما تكونوا يُوَلَّ عليكم » [1] .

رابعاً : قال الشيخ فى حديثه أن الغرب قد عزل الكنيسة ، ولم يقل أنه قد عزل المسيحية ، وغنى عن البيان أن الكنيسة تعنى رجال الدين ، أما الدين المسيحى نفسه فإنه من الافتراء القول بأن الشيخ الشعراوى قد مسَّه - حاشا لله - من قريب أو بعيد .

خامساً : أنَّ تَحَفُّظ الشيخ عن الحديث بشأن المواجهات والمصادمات بين الجهات الأمنية وشباب الجماعات التى تنسب نفسها للإسلام لا عيب فيه .. لأنه حقه .. وقد قلنا من قبل : إن الديمقراطية - التى لا يعرفها الشيوعيون - تتسع لأى خلاف فى وجهات النظر .. خاصة أن هناك قطاعات عريضة من الشعب المصرى تؤمن أن ضرب الإرهاب واجب وضرورى ، لكنها تبدى حزنها على أى قتيل يقع فى أى من الطرفين لأن هذا القتيل فى النهاية هو ابن لمصر .. وكان الأجدر أن يُساعد فى مسيرة البناء والتنمية .

إن مشكلة العَلمانيين أنهم يقتلون أنفسهم من أجل تقليد الغرب ، وأصبحت قضيتهم تنحصر فى الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة والدعوة إلى التحلل من أى التزام تفرضه الشريعة السمحاء .. متصوِّرين أن هذا هو السبيل الصحيح والسريع للرقى والتقدم .. أما قضيتنا التى عبَّر عنها فضيلة الشيخ الشعراوى أفضل تعبير فى حديثه لـ « عقيدتى » فهى إصلاح الدنيا بالدين .

---

(١) فيض القدير للمناوى (٥/ ٤٧) .

لقد قال الشيخ الشعراوى فى هذا الحديث إن المسلمين قد تخلّفوا حينما ابتعدوا عن الإسلام ، وقال قبل ذلك فى لقاء العلماء بصحن الأزهر : « لا تنتظر أن يكون قرارك من رأسك قبل أن يكون طعامك من ضرب فأسك » .

قضيتنا أننا نأخذ الإسلام ديناً ودولة . . ومصر - على وجه التحديد - لم ولن تكون عَلمانية تعتزل الدين . . ذلك لأن مصر ليست مجرد دولة إسلامية . . وإنما هى زعيمة العالم الإسلامى ، وقلبه ، وعقله المفكر ، كل شبر فيها ينطق بالإسلام . . الإسلام السمح العقلانى الذى يرفض التطرف كما يرفض التفريط . . والذى يحفظ لغير المسلمين أموالهم ودينهم وأعراضهم وأرواحهم ، بالضبط كما يحفظها للمسلمين .

فى مصر . . الدين يمتزج دائماً بالحياة امتزاج الروح بالجسد ، ويجتهد إخواننا العَلمانيون فى الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة مع أنهم يعلمون جيداً أن عَلمانيتهم هذه نبت غريب علينا . . لم يظهر فى أرضنا ، ولا يستقيم مع عقائدنا ومسلّماتنا الفكرية ، ويلفظه بناؤنا النفسى والثقافى . . دون حاجة إلى البحث والتحرى .

وحكومتنا ليست حكومة عَلمانية ولن تكون . . ونظامنا السياسى لا يعترف بالعلمانية ، بل يحض على التمسك بالقيم الدينية ، ويؤكد أن التنمية التى نسعى إلى إنجازها لن تتحقق بغير حافز دينى يدفع ، ووازع دينى يردع .

وقد لخص الدستور كل هذه المعانى حين نص على أن مصر دولة إسلامية . . كما نص فى مادته الثانية على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .

فبأى حديث بعد الدستور يؤمن العَلمانيون ؟ !!

* * *

إنهم يبحثون عن دين جديد

نشرت صحيفة « الأهالى » مقالاً عل صفحتها الأخيرة فى عددها رقم ٦٢٩ الصادر فى ٢ / ١١/ ١٩٩٣ بقلم الدكتور محمد أبو الاسعاد تحت عنوان « الشيخ الشعراوى وقضايا المرأة » .

فى هذا المقال يحشد الدكتور أبو الاسعاد عدداً من القضايا الإسلامية التى يتناولها الشيخ الشعراوى بالشرح فى أحاديثه أو فى تفسيره للقرآن الكريم .. مثل الحجاب ، وميراث المرأة بنصف رجل ، وقوامة الرجال على النساء ، وما ملكت أيمانكم .. فيقدمها على أنها من أفكار الشيخ ، ثم يقول بعد هذا الحشد : « وهكذا يحاول الشيخ الشعراوى أن ينقل فقه البداوة والتخلف الذى يستخرجه من براميل النفط السعودية ،وأن يعطيه صيغة دينية مصنوعة ليتسرب إلى الحياة المصرية ، يدمر دعائمها ويُقوِّض تقدمها ، ويقضى على أُسس التحضر المصرية » .

ونسأل الدكتور محمد أبو الاسعاد :

* إذا كنت تعتقد - حقاً - أن الحجاب وميراث المرأة بنصف رجل وقوامة الرجال على النساء من فقه البداوة والتخلف .. فما تقول إذا تأكد لك أنها كلها من قواعد الإسلام .

إن الله سبحانه وتعالى هو القائل فى كتابه العزيز : ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾ [(١)] .. فقرر بذلك ميراث المرأة والرجل .. وهو - سبحانه - الذى فرض الحجاب على المرأة فى قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ...** ﴾ [(٢)] ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ [(٣)] .

---

(١) النساء : ١١ (٢) النور : ٣١ (٣) الأحزاب : ٥٩

وقال النبى ﷺ لأسماء بنت أبى بكر : « إذا بلغت المرأة المحيض لا يُرى منها غير هذا وهذا » .. وأشار إلى وجهه وكفيه [1] .

* إذا كانت أحكام الإسلام هذه هى فقه البداوة والتخلف فما هى - بالضبط - دعائم الحياة المصرية التى سيدمرها ويُقوِّض تقدمها ويقضى على أسس التحضر فيها ذلك الفقه المتخلف ؟

إن لم تكن أحكام الإسلام هى دعائم الحياة المصرية .. فما هى تلك الدعائم إذن ؟ .. هل تعرفون لحياتنا دعائم أخرى غير الإسلام ؟

* ما دخل الشيخ الشعراوى - أو غيره - فى أحكام الله .. إن دور الشيخ يتوقف عند شرح حكم الإسلام للناس .. فإن كان حكم الإسلام لا يعجبكم فقولوها صريحة .. قولوها صريحة بلا لف ولا دوران ؟

إنكم تبحثون عن دين جديد غير هذا الدين .. دين بلا حجاب ، ولا شريعة .. ولا حكم للرِدَّة ، دين لا ترث فيه المرأة نصف الرجل ، ولا يكون الرجل فيه قوَّاماً على المرأة .

للأسف .. لن تجرؤوا على أن تقولوها صريحة .. لكنكم فى سبيل الهجوم على أحكام الإسلام ومبادئه ستلجأون إلى إلصاق ما لا يعجبكم منها بالشعراوى تارة .. وبالإرهابيين تارة أخرى ، حتى بلغ بكم الغرور وصف هذه الأحكام بأنها فقه البداوة والتخلف .

كبرت كلمة تخرج من أفواهكم .. إن تقولون إلا كذباً .

إنه الإسلام .. وتلك شريعته التى قضت بأن المسلمة تلزم الحجاب .. والمسلمة ترث نصف أخيها .. وبأن الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم .

---

(١) سنن أبى داود : ٤/٦٢ ، كتاب اللباس ، باب « فيما تبدى المرأة من زينتها » الحديث رقم (٤١٠٤) .

ليس هذا حكم الشعراوى ، ولا حكم محمد ﷺ ، وليس هذا فقه البداوة والتخلف المستخرَج من براميل النفط السعودية ، ولكنه حكم الله عَزَّ وجَلَّ الذى أخرج به الناس من الظلمات إلى النور .. والذى حوَّل به عرب الجزيرة من حفاة جفاة إلى أصحاب دولة مترامية الأطراف .. ومن أُمِّيين إلى بناة حضارة بهرت العالَم كله حتى اليوم .. وما تراجعت أُمَّتنا وخفت بريقها إلا عندما فرَّطت فى دينها وابتعدت عن حكم ربها .

ويستمر الدكتور « محمد » أبو الاسعاد فى منطقه المغلوط فيقول : « يبادر الشيخ الشعراوى إلى ممارسة نوع من الإرهاب الدينى لتغييب عقول قرائه والسيطرة على مستمعيه وتعطيل معارضتهم ، والمصادرة على آرائهم ، فيعلن أن مناقشة بعض أحكام القرآن الكريم بالنسبة للمرأة إنما هو لتوضيح مفاهيمها .. أما الحكم فنحن لا نناقشه لأن الحكم صادر من الله سبحانه ، وما دام صادراً من الله جَلَّ جلاله فإن غاية مهمة العقل هو التأكد من أن الحكم من عند الله وهذه نهاية مهمة العقل ، أما بحث جزئيات الدين لنقبل بعضه ونرفض بعضه فهذا مرفوض تماماً ، ثم يلوح الشيخ لكل من تُسوِّله نفسه بمناقشة آرائه بأنه قد دخل إلى دائرة الكفر لأن المؤمن ليس عليه إلا أن ينفذ ويطيع ما أمر به الله .. أما الكفار فليسوا مكلَّفين بهذه الأحكام حتى يناقشوها » .

ويحار المرء حين يسأل نفسه : ماذا يريد هذا الكاتب أن يقول بالضبط ؟ !!
ماذا يعنى برغبته فى بحث جزئيات الدين ليقبل بعضه ويرفض بعضه ؟ !!
يا للمصيبة الكبرى !!!

ألم يقرأ الدكتور « محمد » فى حياته - ولو مرة واحدة - قول الله تعالى:
﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إلا خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ؟ !

---

(١) البقرة : ٨٥

يا دكتور محمد أبو الاسعاد .. هذا هو ديننا .. لم يأت به الشيخ الشعراوى ، ولم يخرج من براميل النفط السعودية .. وإنما أنزله الله سبحانه وتعالى هداية ورحمة للعالمين .. وترك لنا حرية الاختيار : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

ثم .. لماذا تستنكر قول الشيخ الشعراوى بأن المؤمن ليس عليه إلا أن ينفذ ويطيع ما أمر به الله ؟ !!

ألم تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) .

حذار - يا دكتور محمد - من التجديف فى دين الله ، وهذه الجرأة على حكم الله .. إنى أخاف عليك من عذاب يوم عظيم .

هل تريد أن يقول الشيخ الشعراوى إن فقه البداوة يأمر بالحجاب .. وفقه الحضر يرفع الحجاب .. حتى ترضى عنه ؟ !

إن الشيخ الشعراوى ليس صاحب قداسة فيما يتعلق بأفكاره هو .. وشروحاته هو .. فالقاعدة الفقهية تقول : « كلٌ يُؤخَذ منه ويُرَد عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. لكن هذا شىء والتشكيك فى النصوص قطعية الدلالة شىء آخر .

لقد ترك لنا الإسلام مساحات واسعة لإعمال العقل فيما فيه مصلحتنا وخير معيشتنا ، وقبل ذلك وضع لنا الضوابط والأحكام بنصوص ثابتة قطعية لا تحتمل التأويل واللف والدوران ، وعلى المسلم .. صحيح الإسلام .. أن يؤمن بهذه النصوص ، ويلتزم بها .. وينفذها ، ويقول كما أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٣) .. أما الذين تختلط الأمور فى أذهانهم فما عليهم إلا أن يسعوا ليعرفوا ، ويفتحوا صدورهم وعقولهم لمن هم أعلم

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الأحزاب : ٣٦ (٣) البقرة : ٢٨٥

منهم من العلماء .. بلا خجل ولا تكبر .. فإن الدكاترة ليسوا ممن يُعذرون بجهلهم أمام الله يوم القيامة .

وإننى أدعو الدكتور محمد أبو الاسعاد ، ومعه الدكتور رفعت السعيد ، ونفسى ، وكل مسلم ومسلمة ، إلى أن نحاول فهم الإسلام على وجهه الصحيح .. وساعتها ستجد أن الإسلام ليس فقه البداوة والتخلف .. لكنه أروع وأكمل مشروع للنهضة عرفته البشرية على مدى تاريخها .. ورغم كل اللغط الذى يثور هنا وهناك ، فلن تنهض أُمَّتنا إلا إذا تقدَّمت نحو الإسلام .. إن الإسلام يقف أمامنا .. وبيننا وبينه خطوات يجب أن نقطعها .. فهل نفعل ؟ !

* *

يا زمان مكرم عبيد .. !!

يستطيع أى متابع لصحيفة « الأهالى » أن يلاحظ بسهولة ذلك «التغيير » الذى حدث فيها ، حين يطالعه كل عدد جديد بكمٍّ من العناوين والإشارات والمضامين التى تحارب أى فكر أو اتجاه أو سلوك ينتمى للإسلام .. وقد تعجب أشد العجب حين تراها تنتقد وزير الأوقاف بشدة ، وتحذِّر الرئيس مبارك منه لا لشىء إلا أنه بعث من جديد فكرة تكريم رئيس الجمهورية لحافظى القرآن الكريم فى المناسبات الدينية !!

وينطلق كُتّاب « الأهالى » فى حربهم ضد الاتجاه الإسلامى إما من قاعدة « الدفاع عن الوحدة الوطنية » أو « الهجوم على السَّلَفية » أو « الهجوم على الرجعية » . فباسم هذه اللافتات الثلاث أو أى منها تنطلق سهام « الأهالى» لتضرب فى نقطة واحدة هى الصحوة الإسلامية .

ولكى لا يقال إننا نتقوَّل على « الأهالى » ولا على رئيسها الأستاذ فيليب جلاب [1] فسوف أعرض هنا بعضاً من ذلك السيل الذى خرجت به الصحيفة فى ثلاثة أعداد فقط على قرائها :

* فى ٢ مايو ١٩٩٠ نشرت « الأهالى » مقالاً للدكتور جلال أمين بعنوان «المظاهرات الدينية ليست صحوة » يشن فيه تحت هذا العنوان « المنطقى » حملة شعواء على البرامج الدينية - يقصد الإسلامية - فى الإذاعة والتليفزيون والمناهج الدراسية ويطالب بتقليل الجرعات الإسلامية حتى لا تخرب عقول التلاميذ !!

---

(١) كان الأستاذ فيليب جلاب يتولى مسئولية رئاسة تحرير « الأهالى » فى ذلك الوقت (ربيع ١٩٩٠) .

* فى ٢٣ مايو ١٩٩٠ نشرت « الأهالى » مقالاً يحمل هجوماً شرساً على الشيخ الشعراوى بعنوان « الشيخ والعفريت وأسئلة لنقابة الأطباء » .. وبجانبه نشرت مقالاً آخر للهجوم على نشاط الشباب الإسلامى بالجامعة .

* أما عدد ٣٠ مايو ١٩٩٠ فقد حفل بمواد متنوعة وأكثر شراسة .. فهناك كاريكاتير يهزأ من تدخل الشيخ الشعراوى فى قضية شركة الريان لتوظيف الأموال . يقول التعليق المكتوب تحته : « شوف .. ما دام مولانا الشيخ الكبير اتدخل فى الموضوع .. كان لازم نتوقع معجزة زى دى » !!

* وتحت هذا الرسم مباشرة مقال للأستاذ « جورج لوقا » بعنوان « إلى الشيخ الشعراوى : لم يصف القرآن الكريم النصارى بالكفر » ، وفيه يتهم الكاتب الشيخ الشعراوى بأنه يُكَفِّر النصارى ، وهو لهذا ينصحه بأن القرآن الكريم لم يُكَفِّر النصارى ، فقد لا يعرف الشيخ الشعراوى هذه المعلومة .. وواضح من المقال أنه يرد على النصيحة التى وجهها الشيخ الشعراوى عبر مجلة « آخر ساعة » لكل مسلم يريد أن يتزوج من نصرانية بأن يسألها قبل الزواج : هل تؤمن بأن المسيح ابن الله ؟ فإن أجابت بلا أتم الزواج على بركة الله ، وإن أجابت بنعم فلا يتم .

*** وفى الصفحة نفسها مقال آخر للأستاذ أحمد المجاهدى بعنوان « لعنة الله عليهم » .. يقول فيه : إن السَلَفية كانت السبب فى تخلف العرب والمسلمين ، وأنها هى التى أجهضت الثورة ، وأنها تعيش على السحت ! وأن الأصوليين والسلفيين تحالفوا مع الصهيونية والاستعمار وأنور السادات ودفعوه لعقد اتفاقية « كامب ديفيد » ثم قتلوه ! ... ثم يقول أيضاً : « إن الأصوليين قد فقدوا العقل ، وتعطل لديهم التفكير لأنهم نهلوا من منابع الصهيونية والسَلَفية والشعوبية والاستعمار » .**

هكذا دفعة واحدة يا أستاذ فيليب جلاب تصف جريدتك الأصولية

الإسلامية بالخيانة والتخلف وفقدان العقل والعيش على السحت .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

والله .. لو اتهمك أحد بواحدة فقط من هذه التهم لخرجت الفِرَق إياها تبكى وتتباكى على « الوحدة الوطنية » ، وترفع الشكوى إلى المسئولين ليمنعوا « الظلم » الذى وقع عليك .. والخطر الذى يهدد حياتك وحريتك .

* وفى نفس العدد نشرت « الأهسالى » خبراً يؤكد أن وزير داخلية حكومة الإنقاذ الوطنى فى السودان التى أعدمت (٢٨) ضابطاً فى محاولة الانقلاب الفاشلة اعترف بأن حكومته تنتمى إلى الجبهة الإسلامية .. ومفهوم - بالطبع - أن هذه الإشارة محاولة مكشوفة لتكريس الانطباع عند القارىء بأن أية حكومة ترتبط بالإسلام لا بد أن ترتبط بالإعدام .

* وفى العدد نفسه نشرت « الأهالى » مقالاً للدكتور رفعت السعيد يهاجم فى مفهوم الاقتصاد الإسلامى ويتهمه بأنه يدافع عن الأغنياء ويُحَرِّم المساس بأموالهم !!

أى غثاء هذا ؟ .. وأى تطرف ممقوت ومكشوف ؟! وأى نتائج وخيمة يمكن أن يؤدى إليها هذا السلوك غير السوى !

ومن المفارقات العجيبة .. أن تنشر « الأهالى » فى نفس العدد الذى حفل بالهجوم على الاتجاه الإسلامى والصحوة الإسلامية عرضاً لكتاب الأستاذة «منى مكرم عبيد » الذى تناولت فيه كلمات ومواقف الزعيم الوطنى الكبير «مكرم عبيد » .. واحتل عرض الكتاب صفحة كاملة تصدَّرها عنوان كبير نُشر بعرض الصفحة كلها يقول على لسان مكرم عبيد : « نحن مسلمون وطناً ومسيحيون ديناً » .

بعد أن قرأت عرض الكتاب كاملاً أيقنت السبب الذى جعل مكرم عبيد زعيماً عبقرياً فى زمن عبقرى .. تجاوز مأزق الطائفية الدينية ، وأدرك حقيقة الهَوِية الإسلامية للوطن الذى يعيش فيه .

لقد فهم مكرم عبيد الإسلام - على طبيعته - بغير تزيد ولا تشويش ولا تشويه ، وتعايش مع الإسلام كوطن وهو على مسيحيته ، فأصبح تعبيراً واضحاً عن الزعامة الشعبية بمفهومها الواسع الذى يتجاوز حدود الطائفة ليسطع فى سماء الوطن كله متمتعاً بحب الأوساط الإسلامية قبل المسيحية .

آه . . يا زمان مكرم عبيد . . أين أنت أيها الزمان العبقرى من زماننا ؟

الآن . . يخرج مَن ينكرون على مصر هَويتها الإسلامية ، ويبحثون لها عن هَوية فرعونية أو إفريقية أو شرق أوسطية أو حتى عربية . . ليشوشوا على هَويتها الإسلامية الخالدة .

دعنى أقولها بصراحة يا أستاذ فيليب جلاب : هل هناك من نصارى مصر اليوم مَن يقول جملة مكرم عبيد صريحة هكذا ؟! هل هناك من مسيحيى مصر اليوم ممَن يعلن صراحة أن ثقافة مصر إسلامية ، وهَوِية مصر إسلامية ، وأن هذا لا يعنى أبداً العدوان على ديانته المسيحية ؟

لو حدث هذا . . وامتنع الهجوم على البرامج الإسلامية فى الإذاعة والتليفزيون ، وامتنع الهجوم على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى كتب المطالعة لتلاميذ الابتدائى ، وامتنع الهجوم على المشايخ ، وامتنعت المطالبة الطائفية « الدخيلة » علينا جميعاً . . لتغيَّر وجه مصر .

زمان مكرم عبيد ، زمان عبقرى ، ومكرم عبيد طراز رائع من الزعامة الشعبية . . لم تمنعه مسيحيته من حفظ القرآن الكريم والاستشهاد به فى مرافعاته وخطبه . . وليس زمان مكرم عبيد هو هذا الزمان الذى يكتب فيه مسيحي ديواناً شعرياً كاملاً يهجو فيه الإسلام والمسلمين ، ويلعن فيه أبا بكر وعمر وعثمان وعليّ وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، ويتهم الصحابة جميعاً بأنهم « أجلاف » أرسلوا عساكرهم إلى مصر لنهبها وتدمير مكتبتها ، وأكل خيراتها !!

لو حدث هذا فى زمن مكرم عبيد . . لتبرأ منه وأدانه مع أمثاله من العقلاء المسئولين .

يا قومنا . . يا إخواننا فى الوطن ، نحن ندعوكم - بأمانة - أن تنظروا إلينا بعين متصفة ، نحن ندين أى مساس بالممتلكات أو الأرواح ، سواء المسلمة أو المسيحية ، أياً كانت الجهة التى تمس هذه الممتلكات والأرواح .

إن الإسلام لا يحث على كراهية أهل الكتاب ، ولا المسيحية تنصح أبناءها بكراهية الإسلام .

يقول الله تعالى مخاطباً المسلمين فى قرآنه الكريم : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

وهكذا . . قدَّم الإسلام « البر » على مجرد « القسط » - أى العدل - ، فالعدل فى الإسلام أدنى درجة من البر ، العدل أخذ وعطاء ، أما البر فعطاء بلا مقابل .

ونصارى مصر - والحمد لله - لم يقاتلوا المسلمين فى الدين ، ولم يُخرجوهم من ديارهم ، وبالتالى فهم أولى ببرهم وقسطهم .

والبر الإسلامى المقصود هنا لا يقف عند حدود المال . . بل يشمل كل عطاء وكل عون . . من المال والجاه والمشاركة الوجدانية والنصيحة والعلم .

ولا يعرف العدل الإسلامى والبر الإسلامى تفرقة عِرْقية أو ثقافية أو دينية . . وفى هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن العدل واجب لكل أحد على كل أحد ، والظلم محرَّم مطلقاً لا يباح قط بحال » (٢) .

---

(١) الممتحنة : ٨

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية ص ٣٧٢

أما المسيحيون فيقول لهم الإنجيل : « أيها السامعون أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم . باركوا لاعنيكم ، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم. **مَن ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً . . .** »[1] .

والمسلمون والحمد لله - ليسوا أعداء المسيحيين - ولا من مبغضيهم ولا لاعنيهم ، بل هم شركاء فى الوطن والمواطنة ، والآلام والآمال ، والمصالح والمنافع ، جيران فى الدار ، وشركاء فى العمل ، والمدرسة ، والمصنع ، والكتيبة ، وفى كل مناحى الحياة المتباينة المتعددة .

فالمسلمون جديرون بحب المسيحيين ، والإحسان إليهم ، ومباركتهم ، وصلواتهم ، والمسيحيون جديرون بقسط المسلمين وبرهم . . بكل ما يعنيه البر من ضروب العطاء والبذل والإحسان والحب والرحمة .

هذا ما يقوله الإسلام للمسلم ، وهذا ما تقوله المسيحية للمسيحى ، وهذا ما ورثناه من زمن الوحدة والتراحم والترابط . . زمن مكرم عبيد . . فهل يفهم المتطرفون والمتعصبون هذا المعنى ؟



---

(١) إنجيل لوقا - الإصحاح السادس : ٢٧ - ٢٩

القرآن .. ليس « عورة »
والتعسف الدينى فى مصر .. أكذوبة !

* فى ١٦ أكتوبر ١٩٩١ .. وعقب المصالحة الوطنية فى إمبابة التى حضرتها قيادات إسلامية ومسيحية .. نشرت صحيفة « الأهالى » (١) مقالاً بعنوان « التعسف الدينى فى مصر » .. وقد حمل هذا المقال دعوة إلى القرّاء من أجل « المشاركة والحوار فى أخطر القضايا الدينية المؤثرة على أمن المجتمع .. بل والتى تدمغ الإسلام والمسلمين بالعدوان على مَن يخالفوهم فى الدين ، لا سيما أن أقلام التاريخ ستكتب خطأ عن التعسف الذى يلقاه المسيحيون فى مصر على يد المسلمين » .

ونحن نتساءل بأمانة ممزوجة بالحيرة .. أى تعسف دينى هذا الذى يتحدثون عنه ؟!! أفى الإسلام تعسف ضد المسيحيين والقرآن الكريم يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ (٢) .. ويقول أيضاً : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ؟! (٣) .

أفى مصر تعسف ضد المسيحيين وهى التى تألق فى سماحتها الدينية ديبلوماسيون وأطباء وأدباء وصحفيون مسيحيون .. يعتلون أعلى المنابر والمناصب فى الدولة ، ونسعد كثيراً بإسهاماتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية لصالح وطننا .. لا نفرق فى هذا بين مسلم ومسيحى ؟!

لا .. والله .. لا يصح أن يُنشر هذا الغثاء أبداً .. حتى وإن كتبه مسلم به علّة .. ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إن يَقُولُونَ إلا كَذِباً ﴾ (٤) .

---

(١) كان الأستاذ فيليب جلاب يتولى مسئولية رئاسة تحريرها فى ذلك التاريخ .

(٢) البقرة : ٢٥٦ (٣) الكافرون : ٦ (٤) الكهف : ٥

إن هذا الغثاء يصدمنا .. فقد تربينا فى قرى مصر ونجوعها إلى جوار إخواننا وأترابنا المسيحيين .. يذهبون معنا إلى المدرسة .. بل وإلى كُتَّاب القرية بلا تفرقة .. يشاركوننا مناسباتنا ونشاركهم مناسباتهم ، يجاملوننا فى الأفراح والأحزان ونجاملهم بلا تفرقة .. ونشترى من البقال المسيحى كما نشترى من البقال المسلم بلا تفرقة .

وفى الجامعة نجلس إلى جانب زميلنا المسيحى .. نأكل معه ، نصادقه .. فأين التعسف إذن ؟!!

وفى صفوف القوات المسلحة ، ينتظم المسلم والمسيحى للدفاع عن الوطن .. وقد يموتان معاً فى خندق واحد ، بلا تفرقة بين دم المسلم ودم المسيحى ، ثم ها نحن نعمل فى مؤسسات الدولة ومصالحها العامة بلا تفرقة ولا تعسف .

التعسف كل التعسف .. أن تنشر « الأهالى » - مثلاً - مقالاً يهاجم حضور الرئيس مبارك احتفالاً دينياً بليلة القدر ، أو بليلة الإسراء والمعراج .. وتكريمه لحفظة القرآن الكريم .

التعسف .. كل التعسف أن تهاجم « الأهالى » بيان وزير الداخلية اللواء محمد عبد الحليم موسى [1] أمام مجلس الشعب فى أعقاب فتنة أبو قرقاص عام ١٩٩٠ لأنه أشار فيه إشارة رقيقة وسريعة إلى أن « هناك عناصر تتعمد الإتيان بأعمال استفزازية لا يقرها أى دين سماوى أو خلق مستقيم » .. وراح يشرح أن هذه الأعمال الاستفزازية تثير حمية المتطرفين من الشباب المسلم فتحدث الفتن .

التعسف .. كل التعسف أن تقول مجلة « صباح الخير » فى عدد (٣/ ١٠/ ١٩٩١) على لسان كاتبها : « **وأعتقد أن تجارب الماضى لا بد أن تكون قد أثبتت أن الشبان المسلمين هم الذين سيتحملون المسئولية الأولى فى أى نوع من تلك الفتن الطائفية حتى ولو لم يكونوا هم البادئون بالاستفزاز .. وحتى العدوان** » !! ..

---

(١) كان اللواء محمد عبد الحليم موسى وزيرا للداخلية فى الفترة من يناير ١٩٩٠ إلى إبريل ١٩٩٣ .

هذا هو التعسف بعينه . . الذى لا يقره عقل ولا منطق !!

* وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٩١ نشرت « الأهالى » مقالاً بعنوان « حديث صريح هذه المرة » [١] تضمن كثيراً من التشويه والتشويش والمغالطة . . بهدف إظهار مصر وكأنها تعيش حرباً أهلية طاحنة . . لا قدَّر الله .

يقول المقال : « إن أوغاد إمبابة (يقصد الذين شاركوا فى أحداث الفتنة من المسلمين فقط) هم التلميح غير العفيف لبعض المشايخ فى مصر الذين لا يحلو لهم إلا تفسير سورتى مريم وآل عمران ، والذين يرمون المسيحيين بالكفر آناء الليل وأطراف النهار » .

قل لى بربك : هل يستطيع مسلم أن يقول - فى مصر - : إن الأوغاد والمتطرفين والجهلة هم التعبير غير العفيف عن القساوسة والكهان ؟!

لا والله . . لا نرضى أبداً أن تُمس رموز المسيحية فى صحافة مصر بهذا الشكل . . كما لا نرضاه أيضاً لرموز الإسلام .

ثم . . ماذا فى سورتى مريم وآل عمران . . مما يلام عليه المشايخ ؟!

فى سورة مريم كرَّم الله سبحانه وتعالى السيدة العذراء وابنها المسيح عليهما السلام . . وبرأها من كل فرية رماها بها اليهود ، وقال على لسان عيسى المسيح : ﴿ **قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً * وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ** ﴾ [٢] .

---

(١) كاتب المقال الدكتور فرج فودة .

(٢) مريم : ٣٠ - ٣٤

وفى سورة آل عمران يقول المولى عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

لم يقل : « اصطفى المسلمين » ، ولا « آل محمد » . . ولكن قال : « اصطفى آل عمران » . . وغنى عن البيان أن « عمران » المقصود هنا هو والد السيدة مريم . . وجد السيد المسيح عليه السلام .

أكثر من هذا . . قال تعالى فى السورة نفسها : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

لم يقل الله تعالى أنه اصطفى آمنة أُم محمد ، ولا فاطمة بنت محمد ، ولا صفية عمة محمد . . بل كرر مرتين اصطفاء مريم ، ونحن نؤمن بهذا ونُصدِّقه ، ونقرأه آناء الليل وأطراف النهار ، ونتعبد به فى صلاتنا لله ، فماذا فى هذا ضد مريم والمسيحيين ؟!

أى « عورة » فى سورتى « مريم » و « آل عمران » يجب أن نداريها ، ولا يصر المشايخ على الحديث عنها حتى نرضيكم ؟! . . وأغلب الظن أنكم لن ترضوا أبداً ما دمتم قد وضعتم أنفسكم فى مأزق الطائفية الدينية .

ألم أقل - فى البداية - إن الإسلام والقرآن قد أصبحا مُتَّهمَيْن فى « الأهالى » وليس المتطرفين والإرهابيين .

ويستطرد صاحب مقال « الحديث الصريح » فيهاجم جامعة الأزهر . . والتعليم الأزهرى ، وإنشاء مدارس إسلامية . . وكأنه ورفاقه لا يعرفون شيئاً عن المدارس المسيحية ، ومدارس الرهبان ، ومدارس اللاهوت المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، وتمارس عملها بكل حرية .

ثم يهاجم مقال « الأهالى » محاضر اجتماعات اللجنة الدينية بمجلس

---

(١) آل عمران : ٣٣ (٢) آل عمران : ٤٢

الشعب لأنها تطالب بزيادة الجرعة الدينية الإسلامية فى التليفزيون ، وتقترح إنشاء جامعة للقرآن الكريم .. فى نفس الوقت الذى يدافع فيه عن حق **المسيحيين فى تخزين الأسلحة لحماية أنفسهم وأرواحهم وكنائسهم !!**

ما هذا « التلبيس » ؟! .. ولمصلحة مَن ؟! .. إن زيادة الجرعة الدينية فى وسائل الإعلام معناها تثقيف الشباب دينياً على الوجه الصحيح حتى نقضى على روح التعصب والتطرف التى تهدد المجتمع كله .. أما تخزين الأسلحة فى الوقت الذى تبذل الدولة فيه قصارى جهدها لحماية الكنائس والممتلكات والأرواح فليس له إلا معنى واحد وهو السعى لتكوين دولة داخل الدولة !!

إن نظام الميلشيات الخاصة لم يحم طائفة فى لبنان .. بل أشعل حرباً أهلية نعوذ بالله منها .. لكن الذى وفر الحماية للجميع هو عودة الشرعية وهيبة الدولة إلى مكانها الصحيح .

ويعيرنا أكثر من مقال فى « الأهالى » بما كان يحدث للمسيحيين فى مصر أيام المقريزى والحاكم بأمر الله .. وأدعو السادة الكُتَّاب إياهم أن يبحثوا معنا عما كان يحدث للمسلمين فى هذه الآونة أيضاً .

لقد عشنا معاً - مسلمين ومسيحيين - عصور ظلام ، وهذه العصور ليست حُجَّة على الإسلام ولا المسلمين .. كما أنها ليست حُجَّة على المسيحية والمسيحيين .

هل الفظائع التى ارتكبتها أوروبا فى الماضى والحاضر ضد الإسلام والمسلمين وقعت بدافع من المسيحية .. أم بجهل فى فهم المسيحية ؟!

وهل وجود الحزب الديمقراطى المسيحى فى الحكم فى ألمانيا - مثلاً - برئاسة « هيلموت كول » يعنى أن ألمانيا دولة دينية متخلفة ومتعصبة ؟!

إن الدول المتقدمة تنظر إلى الدين الآن باعتباره وسيلة من وسائل شحذ الهمم ، وبناء الشخصية الوطنية ، وزيادة الإنتاج .. وقد كان الرئيس

الأمريكى « كارتر » يفخر بأنه متدين . . وكذلك كان يفعل الرئيس الأمريكى « بوش » . . وكم التقطت له عدسات المصوِّرين صوراً فى الكنائس مع رجال الدين .

لماذا - إذن - تثور ثائرتكم إذا حضر رئيس مصر احتفالاً دينياً ؟! ما هذه الحساسية الزائدة ؟!

إذا كنتم تريدونها دولة « عَلمانية » فطلبكم مرفوض مرفوض . . مصر دولة إسلامية . . بل هى زعيمة العالَم الإسلامى بلا منازع .

لن ترهبنا مقالات « الأهالى » . . ولن تثنينا عن أن نقول كلمة الحق . . لعلهم يستحون !!

إنَّ « الأهالى » تصر على دمغنا جميعاً بالعنصرية . . تسحبها مرة على المتطرفين . . ومرات كثيرة على المسلمين أجمعين .

وانظر معى إلى ما نشرته فى عددها الصادر فى (٣٠ أكتوبر ١٩٩١) وهى تقول : « نحن نشير باصبع الاتهام ناحية المسلمين وبلا مواربة لأنهم الأغلبية، ولأنهم الأغلبية تقع عليهم المسئولية لأنهم يملكون السُلْطة والتشريع وصنع القرار ، وتحت أيديهم المدرسة والإعلام وألسنة المشايخ التى تقطر سماً . . ولأنهم أغلبية باستطاعتهم المواجهة الحقيقية لكل أشكال التفريق والعنصرية التى يعانيها الأقباط فى بلدهم ، بل إنهم أصحاب البلد قبل الفتح العربى ، هذه **العنصرية التى نمت واستفحلت منذ أن بدأ السادات هواية تربية « الثعابين » التى لدغه أحدها . . هذه العنصرية التى تبدأ بكراهية الشراء من البقال المسيحى وكراهية زملاء العمل »** .

ما هذا الحقد الأسود ؟!

ألسنة المشايخ تقطر سماً !!

الأقباط يعانون العنصرية فى بلدهم . . بل إنهم أصحاب البلد قبل الفتح العربى !!

.. ومَن نحن إذن ؟! دخلاء ؟! .. غرباء ؟! .. محتلون ؟! .. من نحن بالضبط ؟!

نحن جزء كبير من الأقباط .. سكان مصر .. فالقبطية ليست ديانة .. **لكنها تسمية أُطلقت على سكان مصر التى عُرفت فى الماضى ببلاد « القبط » .. وقد أسلم أجدادنا ، ودخلوا الدين الإسلامى وامتزجوا مع أهل الدين الجديد .. كما كان أجدادهم قد امتزجوا من قبل مع أهل الدين المسيحى الذين جاءوا - أيضاً - من الخارج .**

كفى تضليلاً واستفزازاً ..

وبعد هذا .. يصرون على أن المسلمين وحدهم هم المسئولون عن الفتنة الطائفية .

إننا لا نطلب أكثر من نظرة موضوعية صادقة بغير مزايدة ولا تشويه ولا تشويش .

انظروا معى إلى تلك الصورة الرائعة لهذا الحب بين المسلمين والمسيحيين التى رسمها القرآن الكريم فى أول سورة « الروم » عندما خلَّد الله سبحانه وتعالى حزن المسلمين على هزيمة الروم أمام الفُرس .. وأكد أنهم : ﴿ **مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ (١) .. ثم يقول : ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ** ﴾ (٢) .

لماذا البُشرى بالنصر .. ولماذا التأكيد على فرح المؤمنين ؟! ..

لأن المسيحيين ، وإن لم يؤمنوا مثلنا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أنهم يشتركون معنا فى الإيمان برب محمد سبحانه وتعالى .

---

(١) الروم : ٣ - ٤ (٢) الروم : ٤ - ٥

ثم انظروا مرة أخرى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ (١) .

هذه هى الروح الطيبة العاقلة التى نطلبها .. لا نقول كما يقول العَلمانيون بتنحية الدين جانباً وعزله عن الحياة وإلغاء خانة « الديانة » من بطاقة الهَوِية .. كلا .. بل نطالب بأن يفهم المسلم إسلامه ويتمسك بتعاليم دينه ، وأن يفهم المسيحى دينه ويتمسك بتعاليمه .. ذلك أن الدين هو - كما رأينا - حارس أمين على علاقة الود والتراحم بين الطرفين .

نحن نريد أن نعيش معاً بهذه الروح السمحة النقية - مهما كانت جهالات الجاهلين هنا وهناك ..

وآخر دعوانا : ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

مؤمن الهبَّاء

* * *

« تم بحمد الله »

---

(١) المائدة : ٨٢

محتويات الكتاب

الصفحة

الإهداء	٣
تقديم	٥
مدخل	٩
رحلة التغريب .. والعودة	١٦
الدين هنا .. والدين هناك	٣١
فى الدين والسياسة	٤٧
مفاهيم مغلوطة	٦٢
العَلمانية تؤذّن فى مالطة	٦٢
هذا هو المستحيل	٦٤
عشوائية الفكر	٦٦
أكليشيهات جاهزة	٧٣
المواجهة السافرة	٨٤
قَوْلٌ على أقوال	٩٢
مصر ليست دولة علمانية .. ولا صلاح الدين الأيوبى كان علمانياً	٩٢
الشيخ الشعراوى زعيم المتطرفين !!	٩٨
إنهم يبحثون عن دين جديد	١٠٤
يا زمان مكرم عبيد !!	١٠٩
القرآن ليس « عورة » والتعسف الدينى فى مصر .. أكذوبة .	١١٥
محتويات الكتاب	١٢٣

* * *

رقم الإيداع ٧٤١٣ / ٩٤
I. S. B. N. 977 - 225 - 055 - /

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢